سلسلة أركان الإيمان (5)

الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية

إعداد

د. على محمد محمد الصَّلاَّبِيِّ

بطاقة الفهرسة

اسـم الكتـاب :	الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية
المؤلـف :	د/ على محمد محمد الصَّلاَّبِيِّ
الطبعـة :	طبعة أولى / 1432هـ - 2011 م
الناشـر :	مكتبة جزيرة الورد
رقـم الإيـداع :	
الترقيم الـدولي :	

مكتبـة جزيرة الورد – القاهـرة / ميدان حليـم
خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا
012/9961635 - 02/27877574
010/0004046 - 010/0104115

Mail: info@alsallab.com Website. www.alsallab.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الحشر: ٢١]

الإهــداء

إلى كل إنسان يبحث عن منهج الله في الوجود
أهدي هذا الكتاب..

قــال تعــالى:{فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا}.
[الكهف: ١١٠]

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)} [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)} [النساء: ١].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

فهذا الكتاب يتحدث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، وهو من ضمن سلسلة أركان الإيمان، وقد قمت بتقسيمه إلى مباحث:

المبحث الأول: وقد تحدثت فيه عن القرآن الكريم لغة واصطلاحاً.

وفي المبحث الثاني: تكلمت فيه عن عظمة القرآن الكريم وأسمائه وصفاته.

ومن أسماء القرآن الكريم، الفرقان والبرهان، والحق والنبأ العظيم والبلاغ، والروح، والموعظة، والشفاء، وأحسن الحديث.

وذكر المولى عز وجل أوصافاً عديدة للقرآن الكريم منها:

الحكيم، والعزيز، والكريم، والمجيد، والعظيم، والبشير، والنذير.

وفي المبحث الثالث: أشرت إلى خصائص القرآن الكريم والتي من أهمها كونه كتابًا إلهيًا، ومحفوظًا ومعجزًا، ومبينًا وميسرًا، وكتاب هداية، وكتاب الإنسانية كلها والزمن كله، ونزل بأرقى اللغات وأجمعها، ومهيمنًا على الكتب السماوية السابقة.

وفي المبحث الرابع: تكلمت عن مقاصد القرآن الكريم، والتي من أهمها: تصحيح العقائد والنصورات، وتزكية النفس البشرية، وعبادة الله وتقواه، وإقامة العدل بين الناس، الشورى، الحرية، رفع الحرج، تقرير كرامة الإنسان بالأخلاق والفضائل، وتقرير حقوق الإنسان، كحق الحياة والحرية والمساواة والعدالة، وحق الفرد في محاكمة عادلة، حق الحماية من تعسف السلطة، وحق الفرد في حماية عرضه وسمعته، حق اللجوء، وحقوق الأقليات، وحق المشاركة في الحياة العامة، وحق الدعوة والبلاغ والحقوق الاقتصادية، وحق الملكية، وحق العامل وحق الفرد في كفايته من مقومات الحياة، وتأكيد حقوق الضعفاء، ومن مقاصد القرآن الكريم، تكوين الأسرة الصالحة، وإنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية، وبناء الأمة

الشهيدة على الناس، والسماحة والرحمة، والوفاء بالعهود والعقود.

وفي المبحث الخامس: جمع القرآن الكريم وكتابته وقد بينت فيه المراحل التي مرَّ بها المشروع الحضاري في جمع القرآن الكريم وكتابته من عهد النبي ﷺ إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفي المبحث السادس: كان الحديث عن الكتب السماوية كصحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل، والزبور، ووجوب الإيمان بها، وأهمية ذلك، وما تعرضت له من التحريف، ونسخ القرآن الكريم للكتب التي سبقته.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الخميس في الساعة السادسة إلا ربع مساءً بتاريخ 24 شعبان 1431هـ 2010/8/5م.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل، ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى:{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾} [فاطر: ٢].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله هو خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللهم بصرني بما

يرضيك، واشرح له صدري وجنبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب أخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير، إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: {رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [النمل: ١٩].

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

Mail: info@alsallab.com
Website. www.alsallab.com

* * *

المبحث الأول

القرآن
لغــة واصطلاحا

أولا - القرآن لغة

اتفق أهل العلم رحمهم الله على أن لفظ " قرآن " اسم وليس بفعل ولا حرف، لكنهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدراً أو وصفاً على أقوال عدة تجمل فيما يأتي[1]:

القول الأول: إنه " اسم علم غير منقول " وضع من أوّل الأمر علماً على الكلام المنزَّل على محمد ﷺ، وهو اسم جامد غير مهموز، مثل التوراة والإنجيل، وهذا القول مروي عن جماعة من العلماء منهم: الشافعي، وابن كثير وغيرهما رحمهم الله جميعاً.

وقد نقل ابن منظور أن الشافعي رحمه الله كان يقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأتُ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل[2].

القول الثاني والثالث: هم القائلون بأن لفظ القرآن " مهموز "[3] وقد اختلفوا على رأين:

الأول: أن القرآن: مصدر " قرأ " بمعنى: " تلا " كالرجحان والغفران، ثم نُقل من المصدر، وجُعل اسماً للكلام المنزَّل على نبينا محمد ﷺ.

---

(1) معجم مقاييس اللغة (2/ 396)، المصباح المنير صـ 259، لسان العرب (1/ 128 - 131).

(2) لسان العرب (1/ 128) مادة " قرأ ".

(3) معنى مهموز: أن الهمزة في لفظ " القرآن أصلية " من " قرأ ".

ويشهد له قوله تعالى:{فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾} [القيامة: ١٨] أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به ::: يُقطّعُ الليل تسبيحاً وقرآناً

أي: قراءة[1].

الثاني: أن القرآن: وصف على وزن فعلان مشتق من " القَرْء " بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، " وقرأت الشيء قرآناً ": جمعته وضممت بعضه إلى بعض[2].

وسمي القرآن قرآناً؛ لأنه جمع القصَصَ، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران[3].

القولان الرابع والخامس: هم القائلون بأن لفظ القرآن " غير مهموز " لكنهم اختلفوا في أصل اشتقاقه على قولين:

- أنه مشتق من " قرنْتُ الشيء بالشيء " إذا ضَممت أحدهما إلى الآخر.

قالوا: فسُميّ القرآن به: لِقِران السُور والآيات والحروف فيه، ومنه فسُمّيَ الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران[4].

- أنه مشتق من " القرائن " جمع قرينة؛ لأن آياته يُصدّق بعضها

(1) عظمة القرآن الكريم، محمود الدوسري صـ 47.
(2) لسان العرب (1/ 128).
(3) عظمة القرآن الكريم صـ 47، ومن القائلين بهذا القول الزجاج.
(4) البرهان في علوم القرآن (1/ 278) للزركشي.

بعضاً ويُشبه بعضها بعضاً [1].

ويظهر - والله أعلم - أن أرجح هذه الأقوال هو القول الثاني، لِقُرب اشتقاقه من كلمة القرآن لفظاً ومعنى.

وأصبح لفظ القرآن - بعد ذلك: علماً على الكتاب المنزل[2].

ثانياً: القرآن في الاصطلاح:

وقد ذكر العلماء رحمهم الله للقرآن الكريم تعريفاً اصطلاحيًّا يُقرّب معناه ويميزه عن غيره، فعرّفوه بأنه: كلام الله المنزل على نبيّه محمد ﷺ، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر[3].

* * *

(1) الإتقان في علوم القرآن صـ 137 للسيوطي.
(2) عظمة القرآن الكريم صـ 49.
(3) عظمة القرآن الكريم صـ49.

المبحث الثاني

عظمة القرآن وأسماؤه وصفاته

أولا: عظمة القرآن الكريم

تحدث المولى عز وجل في كتابه عن عظمة القرآن الكريم، ومن خلال آياته الحكيمة نبين هذه العظمة وإليك التفصيل:

1. ثناء الله على كتابه:

أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة مما يدل على عظمته كما وصفه " بالعظيم " في قوله تعالى:{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾} [الحجر: ٨٧].

ووصفه بالأحكام في قوله تعالى:{الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾} [هود: ١].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى:{ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } [المائدة: ٤٨].

وهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصد الكتب المنزلة قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها يُقِرُّ الصحيح فيها ويُصحّح الخطأ.

ووصفه في أم الكتاب بأنه " عليٌّ حكيم " في قوله:{ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾} [الزخرف: ٤].

فهذه شهادة من الله تعالى بعلو شأن القرآن الكريم وحكمته، ولا ريب أن من عظمة القرآن الكريم أنه " عليٌّ " في محله، وشرفه، وقدره، فهو عال على جميع كتب الله تعالى، بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه

الدهر[1].

ومعنى الحكيم: المنظوم نظماً متقناً لا يعتريه أي خلل في أي وجه من الوجوه، فهو حكيم في ذاته حاكم على غيره.

والقرآن الكريم " حكيم " كذلك فيما يشتمل من الأوامر والنواهي، والأخبار، وليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ومن ثناء الله تعالى على القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه " كتاب مبارك ".

- قال تعالى:{وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [الأنعام: ٩٢].

- وقال تعالى:{وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأنعام: ١٥٥].

- وقال تعالى:{ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾} [الأنبياء: ٥٠].

وبركة هذا الكتاب تمتد إلى يوم القيامة، وعطاؤه نامٍ لا ينفذ.. يواكب الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعاً لأصحابه[2].

---

(1) التفسير الكبير (27 / 167).
(2) عظمة القرآن الكريم صـ59.

2 ـ عظمة مُنَزِّلِه سبحانه وتعالى:

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عز وجل، والعظمة صفة من صفات الله، لا يقوم لها خلق، والله تعالى خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم المال، ومنهم من يعظم الفضل، ومنهم يعظم العلم، ومنهم من يعظم السلطان، ومنهم من يعظم الجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم بمعنى دون معنى، والله عز وجل يعظم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف حق عظمة الله ألا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله؛ إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت(1).

فالله تعالى هو العظيم المطلق؛ لأنه عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته كلها، فلا يجوز قصر عظمته في شيء دون شيء منها؛ لأن ذلك تحكم لم يأذن به الله(2).

فمن عظمته تعالى: أنه لا يَشُقُّ عليه أن يحفظ السماوات السبع والأرضين السبع، ومن فيها، وما فيها، كما قال تعالى:{وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ } [البقرة: ٢٥٥].

وتتجلى عظمة القرآن العظيم في عظمة مُنزِّله جل جلاله، ويتضح ذلك جليًّا في عدة آيات منها:

- قوله تعالى:{الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ } [السجدة: ١ - ٣].

---

(1) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد بن حمد (1 / 265).
(2) عظمة القرآن الكريم صـ60.

- وقوله تعالى:{حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾} [الجاثية، الأحقاف: ١ - ٢].

3 ـ فضل من نزل القرآن:

نوه الله تعالى بشأن من نزل بالقرآن على رسولنا محمد ﷺ، وهو جبريل عليه السلام، أمين الوحي الالهي، وذكر فضله في عدة آيات منها:

قال تعالى:{ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾} [النحل: ١٠٢].

وقال تعالى:{وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمس صفات في قوله تعالى: {إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾} [التكوير: ١٩ - ٢١].

وهذه الصفات الخمس تتضمن تزكية سند القرآن العظيم، وأنه سماع نبينا محمد ﷺ من جبريل عليه السلام، وسماع جبريل الأمين من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة[1].

4 ـ القرآن تنزيل رب العالمين:

قال تعالى:{وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٣].

---

(1) عظمة القرآن صـ93.

وقال تعالى:{إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١} [القدر: ١].

وفيه ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن[1].

فمن عظمة القرآن أنه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره، لنفع الناس وهدايتهم، فاجتمعت في القرآن العظيم فضائل منها:

- أنه أفضل الكتب السماوية.

- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، الأمين على وحي الله تعالى.

- نزل على أفضل الخلق محمد ﷺ.

- نزل لأفضل أمة أخرجت للناس.

- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين[2].

5 ـ القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

قال تعالى:{ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا } [الكهف: ١ - ٢].

ونفي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها:

الأول: نفي التناقض عن آياته، كما قال تعالى:{كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا } [النساء: ٨٢].

الثاني: إن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من التوحيد والنبوة

---

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (30 / 402).
(2) تفسير السعدي (3 / 485).

والأحكام والتكاليف وهو حق وصدق ولا خلل في شيء منه البتة[1].

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنه ليس فيه تضاد، ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال تعالى:{قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ} [الزمر: ٢٨]، أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته[2].

فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأوصاف عظيمة تدل على أنه كامل من جميع الوجوه، وعظيم بكل ما تعبر عنه الكلمات منها:

- نفيُ العوج عنه: وهذا يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

- إثبات أنه مستقيم مقيم: فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادّة الصوّاب وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبرُ ولا يأمر إلا بأجلّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه، تزكي النفوس وتطهرها وتنميّها وتكمّلها لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له، فحقيق بكتاب موصوف بما ذُكر، أن يَحمد الله تعالى نفسه على إنزاله[3]، وينفي العوج عن القرآن الكريم، وتتجلى عظمته وعلّو شأنه، ومنزلته عند

---

(1) التفسير الكبير للرازي (21 / 64).
(2) تفسير ابن كثير (4 / 53)، تفسير السعدي (1 / 723 - 724).
(3) عظمة القرآن الكريم صـ 70.

الله[1].

6. خشوع الجبال وتصدعها:

قال تعالى:{لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} [الحشر: ٢١] أي: لا تّعظ الجبل وتصدّع صخره من شدّة تأثره من خشية الله، ففي هذا: بيان حقيقة تأثير القرآن الكريم وفعاليته في المخلوقات، ولو كانت جبلاً أشم، وحجراً أصم[2]، وضُرب التصدّع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدّع ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوع: هو التّطأطؤ والرّكوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدع: التشقق، أي لتزلزل وتشقق من خوف الله تعالى[3].

ولا شك أن هذا تعظيم لشأن القرآن الكريم، وتمثيل لعلوّ قدره وشدّة تأثيره في النفوس، لما فيه من بالغ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحقّ والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن - كما فهمتموه - لخشع وتصدّع من خوف الله تعالى، فكيف يليق بكم أيُّها البشر ألاّ تلين قلوبكم وتخشع وتتصدّع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبّرتم كتابه[4]،

---

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 70.

(2) أضواء البيان (8/ 76).

(3) التحرير والتنوير (28/ 104).

(4) تفسير ابن كثير (4/ 343 - 344).

والمقصود من إيراد الآية: إبراز عظمة القرآن الكريم، والحث على تأمل مواعظه الجليلة، إذ لا عذر لأحد في ذلك، وأداء حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخ من لا يحترم هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل وتخييل لعلوِّ شأن القرآن الكريم وقوة تأثير ما فيه من المواعظ[1].

7ـ انقياد الجمادات لعظمة القرآن:

قال تعالى:{وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ} [الرعد: ٣١].

فهذا شرط جوابه محذوف، والمراد منه: تعظيم شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أن قرآناً سُيرت به الجبال عن مقارّها، وزُعزعت عن مضاجعها، أو قُطعّت به الأرض حتى تتصدّع وتتزايل قطعاً، أو كُلم به الموتى فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في التخويف[2].

والمقصود: بيان عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأي الكفرة، حيث لم يقدّروا قدره العلي، ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أُوتي موسى وعيسى عليهما السلام.. فالمعنى:{لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} أي: بإنزاله أو بتلاوته عليها، وزعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام:{أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ

(1) تفسير أبي السعود (8/ 233) زاد المسير (8/ 224).
(2) الكشاف للزمخشري (2/ 498)، عظمة القرآن الكريم صـ 72.

الأَرْضُ } أي: شققت وجُعلت أنهاراً وعيوناً، كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعاً متصدّعة أو:{أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمُوْتَى } أي: بعد ما أحييت بقراءته عليها، كما أُحيت لعيسى عليه السلام، لكان هذا القرآن الكريم لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته(1).

8- تحدي الإنس والجن بالقرآن:

من مظاهر عظمة القرآن وعلو شأنه، أن الله تعالى تحدّى الإنس والجنَّ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله أو بسورة مثله(2).

قال تعالى:{ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾} [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى:{أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ } [هود: ١٣ - ١٤].

ومع ذلك كله، ما ثابوا إلى رشدهم، وما وجدوا ما يتكلمون به فعادوا لما نهوا عنه وقالوا: " اختلقه محمد عمداً "، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، ووصل بهم إلى غاية التّبكيت والخذلان وتحدّاهم أن يأتوا بسورة مثل القرآن الكريم فعجزوا.

قال تعالى:{ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ

(1) تفسير أبي السعود (5/ 21 - 22).
(2) عظمة القرآن الكريم صـ 73.

ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾} [يونس: ٣٨].

ولما بهت الذين كفروا، ولم يستسلموا صاروا كالذي يتخبطه الشيطان من المسَّ، مرة يقولون استهزاء:{لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ } [الأنفال: ٣١].

وأخرى يقولون عابثين:{ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ } [يونس: ١٥].

وصار أمرهم على ما يقول الله العظيم:{بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ } [يونس: ٣٩] (1).

فهذا القرآن العظيم ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربي، إنه كلام الله تعالى الذي تحدى به الخلق كلهم، فقال عز وجل من قائل حكيم:{ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا } [الإسراء: ٨٨].

فهذا تنويه بشرف القرآن الكريم وعظمته وهذه الآية ونحوها تُسمىّ آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم أو سورة منه(2).

وكيف يقدر المخلوق من تراب أن يكون كلامه ككلام ربّ العالمين، أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه،

---

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 75.

(2) المصدر نفسه صـ 76.

هذا ليس في الإمكان ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء ظهر له الفرق العظيم[1].

فعظمة القرآن وعلو شأنه لا تجعل للخَلق من إنس وجِنّ مطمعاً في الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[2].

ثانياً: أسماء القرآن الكريم:

للقرآن الكريم أسماء عظيمة من أهمها:

1. الفرقان:

سمّى الله تعالى القرآن الكريم فرقاناً في أربع آيات في كتابه المبارك وهي:

- قوله:{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١} [الفرقان: ١].

- وقال تعالى:{وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ} [آل عمران: ٤].

- وقال تعالى:{شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥].

- وقال تعالى:{وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا} [الإسراء: ١٠٦].

وذكر المفسرون في سبب تسمية القرآن الكريم بالفرقان أقوالاً منها:

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 77.
(2) المصدر نفسه صـ 77.

- سُمي بذلك، لأن نزوله كان متفرقاً أنزله تعالى في نيف وعشرين سنة، في حين أن سائر الكتب نزلت جملة واحدة[1].

- سُمي بذلك؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والخير والشر، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والسعادة والشقاوة، والمؤمنين والكافرين والصادقين والكاذبين، والعادلين والظالمين، وبه سُمي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق، وقد بين ابن عاشور رحمه الله سبب تسمية القرآن الكريم بالفرقان بقوله: ووجه تسميته الفرقان أنه امتاز عن بقية الكتب السماوية بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإن القرآن الكريم يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبُك ما اشتمل عليه من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجد مثله في التوراة والإنجيل، كقوله تعالى:{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ} [الشورى: ١١] [2].

وقيل: الفرقان هو النجاة، سُمي بذلك؛ لأن الخلق في ظلمات الضلالات، وبالقرآن وجدوا النجاة، وعليه حمل المفسرون قوله تعالى: {وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣} [البقرة: ٥٣][3].

وسواء كانت تسمية القرآن العظيم بالفرقان؛ لأن نزوله كان متفرقاً في نيف وعشرين سنة بينما سائر كتب الله تعالى نزلت جملة واحدة، أو سُمي بذلك؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، أو لأن فيه نجاة من ظلمات الضلالات، فهذا الاختلاف في التنوع يدل دلالة صريحة

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 152.
(2) المصدر نفسه صـ 153.
(3) المصدر نفسه صـ 154.

على عظمة القرآن، ورفعة منزلته عند الله تعالى، وعلو شأنه[1].

2ـ البرهان:

سمىّ الله القرآن الكريم برهاناً في آية واحدة في كتابه العزيز، وهي قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ} [النساء: ١٧٤].

فهذا خطاب لكل أصحاب الملل، اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم، أن الله تعالى أقام بهذا القرآن الحجة عليهم تُبرهن لهم بطلان ما هم عليه من الدين المنسوخ، وهذه الحجة تشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الآفاقية، كما قال تعالى:{ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ } [فصلت: ٥٣].

بل كفى بالقرآن العظيم - وحده - برهاناً على صدق الرسول ﷺ في دعوى الرسالة[2].

فالقرآن الكريم برهان من الله لعباده، أقام به الحجة عليهم، وأظهر من خلاله أوضح الدلالات وأقواها على موضوعاته ومعانيه وحقائقه في العقيدة والحياة، وكلٌّ من تعامل مع أدلة القرآن الكريم في يُسرها ووضحها وتأثر قلبه وعقله بها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية وقررتها، وبينتها وكل من فعل ذلك يُدرك طرفاً من البرهان القرآني ويسره ووضوحه[3].

وتتجلى عظمة القرآن الكريم ومنزلته العالية من خلال تسميته

(1) عظمة القرآن الكريم.
(2) فتح القدير (1/ 542)، أضواء البيان (7/ 79 - 80).
(3) مفاتيح للتعامل مع القرآن صـ 34.

بالبرهان، ذلك لأن الله تعالى أقام به الحُجة على عباده، تُبرهن لهم بطلان ما هم فيه من الدين المنسوخ، وهي حُجة متنوعة في الاستدلال لتستوعبها عقول البشر على اختلاف فهومهم وثقافاتهم، وهذا من رحمة الله تعالى وحكمته[1].

3ـ الحق:

سمّى الله تعالى القرآن الكريم حقاً في مواضع عِدّة من كتابه، نأخذ منها ما له صلة بموضوعنا وهي:

ـ قوله تعالى:{وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾} [الحاقة: ٥١].

أي: وإن القرآن الكريم لكونه من عند الله حق فلا ريب فيه ولا يتطرق إليه شك[2].

ـ وقال تعالى:{ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ} [الأنبياء: ١٨].

والقذف: الرّمي، أي نرمي بالحق على الباطل " فيدمغه " أي: يقهره ويهلكه.

وأصل الدمغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه الدّامغة، والحق هنا القرآن، والباطل الشيطان في قول مجاهد[3].

ـ وقال تعالى:{وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾} [الأنعام:

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 156.
(2) فتح القدير للشوكاني (5/ 401).
(3) تفسير القرطبي (11/ 295).

٦٦].

والضمير في قوله " به " عائد على القرآن الذي فيه تصريف الآيات(1).

وقوله تعالى:{وَهُوَ الْحَقُّ } جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن الكريم المنزّل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله(2).

والمعنى:{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ} أي: بالقرآن الكريم الذي جئتم به، والهدى والبيان،{قَوْمُكَ} يعني قريشاً،{وَهُوَ الْحَقُّ} أي: الذي ليس وراءه حق،{قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم(3).

ـ قوله تعالى:{وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [هود: ١٧].

قوله تعالى:{وَمَن يَكْفُرْ بِهِ} أي: بالقرآن ولم يُصدق بتلك الشواهد الحقة.

وقوله:{ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ } أي: في شك من أمر القرآن الكريم وكونه من عند الله عز وجل(4).

وفيه تعريض بغيره ﷺ؛ لأنه معصوم عن الشك في القرآن(5).

(1) تفسير الثعالبي (1/ 529).
(2) أضواء البيان (7/ 246).
(3) تفسير ابن كثير (3/ 315).
(4) تفسير أبي السعود (4/ 195).
(5) فتح القدير، للشوكاني (2/ 288).

وقوله تعالى:{إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} أي: القرآن حق من الله تعالى لا مرية ولا شك فيه.

وقوله تعالى:{وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي: إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبغياً وإلا فمن قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلابد أن يؤمن به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه[1].

ـ وقال تعالى:{ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾} [سبأ: ٤٨ - ٤٩].

وقوله تعالى:{قُلْ جَاء الْحَقُّ } أي: وهو الإسلام والقرآن[2]، فهذا القرآن العظيم الذي جاء به النبي ﷺ هو الحق: الحق القوي الذي يقذف به الله تعالى، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟

وكأنما الحق قذيفة تصدع وتخرق وتنفذ ولا يقف لها أحد في طريق، يقذف بها الله تعالى عَلاَّم الغيوب، فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدف، ولا تغيب عنه غاية، فالطريق أمامه تعالى مكشوف ليس فيه ستور[3].

ومن خلال تسمية القرآن الكريم باسم الحق تبرز عظمته ومنزلته العالية، فلابد أن يؤمن الناس لهذا الحق الأوحد ويستجيبوا له؛ لأن

---

(1) تفسير السعدي (2/ 359).
(2) زاد المسير (6/ 466).
(3) في ظلال القرآن (5/ 2915).

صدره هو الإله الأوحد جلّ جلاله[1].

4ـ النبأ العظيم:

قال تعالى:{قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾} [ص: ٦٧ - ٦٨].

أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم{أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} أي: غافلون. في قوله عزّ وجلّ:{قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} يعني: القرآن[2].

وقال تعالى:{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾} [النبأ: ١ - ٢].

ولاشك بأن القرآن نبأ عظيم، فمنذ إيجاد البشرية، وتكوينها، ما رأت ولا سمعت بمثل هذا القرآن الكريم العظيم فهو عظيم في أسلوبه، وعظيم في روعته، وعظيم في معناه، وعظيم في جمال تركيبه، وعظيم في وعده ووعيده وعظيم في أحكامه، وعظيم في أمره ونهيه، وعظيم في أخباره وقصصه وأمثاله[3].

5ـ البلاغ:

قال تعالى:{ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ} [إبراهيم: ٥٢].

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه:{هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ} أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات، وأفضل الكرامات لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 161.
(2) تفسير ابن كثير (4/ 43).
(3) عظمة القرآن الكريم صـ 162.

يحتاجها العباد:{وَلِيُنذَرُواْ بِهِ} لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب[1].

6ـ الروح:

قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا } [الشورى: ٥٢].

والمعنى:{وَكَذَلِكَ} حين أوحينا إلى الرسل قبلك:{أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} وهو: هذا القرآن العظيم، سمّاه روحاً؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن الكريم تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال تعالى:{مَا كُنتَ تَدْرِي} أي: قبل نزوله عليك:{مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الروح الذي: {جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا} يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم[2].

7ـ الموعظة:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } [يونس: ٥٧].

يعني: القرآن الكريم يتعظ به من قرأه وعرف معناه، يا أيها الناس قد

---

(1) تفسير السعدي (1/ 428).
(2) المصدر نفسه (4/ 434 - 435).

جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح.

قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ أو الوصايا الحسنة التي تُصلح الأخلاق والأعمال وتزجر عن الفواحش، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة[1].

فكفى بالقرآن الكريم واعظاً، وكفى بالقرآن الكريم زاجراً، وكفى بالقرآن الكريم هادياً ومُذكراً[2].

8- الشفاء:

سمّى الله عز وجل القرآن الكريم العظيم شفاءً في ثلاثة مواضع من كتابه وهي:

-قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ} [يونس: ٥٧].

أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشد من أمراض الأبدان كالشك والنفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك[3].

-وقال تعالى:{ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢].

(1) التفسير المنير في العقيدة والشريعة، وهبة الزجيلي (6/ 213).
(2) عظمة القرآن الكريم صـ 173.
(3) روح المعاني (11/ 176).

فالقرآن الكريم كله شفاء ورحمة للمؤمنين[1].

- وقال تعالى:{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ} [فصلت: ٤٤].

فالقرآن الكريم شفاء من أمراض القلوب والنفوس والجوارح، وأمراض السياسة والاقتصاد، والحياة، والحضارة، وغيرها من أمراض العصر، فمن عظمة القرآن الكريم وعلو شأنه وعظمة تأثيره: أن فيه الشفاء الكامل لأمراض الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، والأمراض الجسدية، وشفاؤه يمتد كذلك إلى الأمراض المعاصرة المزمنة لو أخذ الناس بتعاليمه وأدويته النافعة فعملوا بها[2].

9- أحسن الحديث:

قال تعالى:{ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ } [الزمر: ٢٣].

يعني أحكم الحديث، وهو القرآن الكريم [3].

وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله، هذا القرآن الكريم وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجلُّ المعاني؛ لأنه أحسنُ الحديث في لفظه ومعناه متشابه في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 175.
(2) المصدر نفسه صـ 176.
(3) المصدر نفسه صـ 177.

عليم[1].

وقد سُمّى القرآن الكريم حديثاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها:

ـ قوله تعالى:{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥].

ـ قوله تعالى:{ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾} [الكهف: ٦].

ـ قوله تعالى:{أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾} [النجم: ٥٩].

ـ قوله تعالى:{فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ} [القلم: ٤٤].

وكون القرآن العظيم أحسن الحديث على الإطلاق، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى، من حيث فصاحة ألفاظه ووضوحها، وجلالة معانيه وكثرتها ونفعها دلّ ذلك على عظمته وعلو شأنه ورفعته[2].

ثالثاً: أوصاف القرآن الكريم:

ذكر المولى عز وجل أوصافاً عديدة للقرآن الكريم منها:

1ـ الحكيم:

وصف الله تبارك وتعالى كتابه بأنه حكيم في عدة آيات منها:

- قوله تعالى:{تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ} [يونس: ١].

---

(1) المصدر نفسه صـ 178.

(2) عظمة القرآن الكريم صـ 179.

- وقال تعالى:{يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢} [يس: ١ - ٢].

فهذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم وقد وصفه بالحكمة وهي وضع كل شيء في موضعه اللائق به والقرآن الحكيم يخاطب كل أحد بما يناسبه ويؤثر فيه كائناً من كان وهذا من مقتضيات أن يكون حكيماً والقرآن الحكيم يُربي أيضاً بحكمة، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، منهج يوجه طاقات البشر إلى الوجه الصالح القويم ويقرر للحياة كذلك نظاماً يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم[1].

ومن إحكام آيات القرآن الحكيم:

ـ أنها جاءت بأجل الألفاظ وأوضحها، وأبينها، الدّالة على أجلّ المعاني وأحسنها.

ـ أنها محفوظة من التّغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ـ أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأت علم محسوس ولا معقول صحيح يُناقض ما دلت عليه.

ـ أنها ما أمرت بشيء، إلا هو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا هو خالص المفسدة، أو راجحها، وكثيراً ما يُجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء، مع

(1) في ظلال القرآن (5/ 2958).

ذكر مضرته.

ـ أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيّرة وتحتكم، فتعمل بالجزم.

ـ أنك تجد آياتها المتكررة، كالقصص والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف.

وأنّى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب الحكيم، وهو تنزيل من حكيم حميد، والحكمة ظاهرة في بنائه، وتوجيهه، وطريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق[1].

2ـ العزيز:

قال الله تعالى في وصف القرآن الكريم:{وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ} [فصلت: ٤١].

أي: يصعب مناله ووجود مثله[2].

والعزيز: النفيس، وأصله من العزّة وهي المنعة؛ لأن الشيء النفيس يُدافع عنه ويُحمى عن النبذ، ومثل ذلك يكون عزيزاً والعزيز أيضاً: الذي يغلب ولا يُغلب، وكذلك حجج القرآن الكريم[3].

ووصف تعالى الكتاب بالعزة؛ لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه وهو محفوظ من الله تعالى[4]، وجماع أقوال

(1) تفسير السعدي (4/ 227).
(2) المفردات في ترغيب القرآن صـ 335 - 336.
(3) عظمة القرآن الكريم صـ 173 وما بعدها.
(4) التحرير والتنوير (25/ 71).

المفسرين في وصف القرآن الكريم بأنه " عزيز " ما يلي:

- منيع من الشيطان لا يجد إليه سبيلا، ولا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه.

- كريم على الله، وعزيز على الله، وعزيز من عند الله.

- عديم النظير منيع من الباطل، ومن كل من أراده بتحريف أو سوء.

- يمتنع على الناس أن يقولوا مثله فهو غالب وقاهر والمتأمل في هذه الأقوال يجدها جميعاً تنطبق على " العزيز " وصفاً للقرآن وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، تدل على عظمة القرآن الكريم وعزته وعلو شأنه ورفعته.

فنحمد الله العزيز الذي أنزل كتاباً عزيزاً:{وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ} [فصلت: ٤١] على نبي عزيز{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ} [التوبة: ١٢٨].

لأمة عزيزة{وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨][1].

3. الكريم:

قال تعالى:{فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾} [الواقعة: ٧٥ - ٧٧].

والكريم: اسم جامع لما يحمد وذلك أن فيه - البيان والهدى والحكمة وهو مُعظّم عند الله عز وجل[2].

(1) تفسير ابن عطية (5/ 19).

(2) زاد المسير (8/ 151).

4. المجيد:

قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾} [البروج: ٢١ - ٢٢].

وقال تعالى: {قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾} [ق: ١].

والمعنى: إن هذا القرآن الكريم الذي كذّبوا به شريف الرّتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناه في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يقولون: إنه شعر وكهانة وسحر، وإنما هو كلام الله المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ[1].

5. العظيم:

لقد نوّه الله تبارك وتعالى بعظمة القرآن الكريم، فقال تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ} [الحجر: ٨٧ - ٨٨].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها، استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم، عمّا فيه من المتاع والزهرة الفانية[2].

فالقرآن الكريم هو النعمة العُظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة فعليك أن تستغني به[3].

(1) التفسير المنير (15/ 545).
(2) عظمة القرآن الكريم صـ 196.
(3) الكشاف للزمخشري (2/ 549).

6- البشير والنذير:

قال الله تعالى في وصف القرآن العظيم:{كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [فصلت: ٣ - ٤].

فهذا وصف للقرآن العظيم أنه: يبشر من آمن بالجنة، وينذر من كفر بالنار[1].

7- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى:{ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ} [فصلت: ٤٢].

فالله عز وجل لم يجعل للباطل مدخلاً على هذا الكتاب العزيز وأنّى له أن يدخل عليه وهو صادر من الله الحق العظيم.

قال تعالى:{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا } [النساء: ٨٢].

وقال تعالى:{ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾} [يونس: ٣٧] [2].

* * *

(1) تفسير ابن عطية (5/ 4).

(2) عظمة القرآن الكريم صـ 199.

المبحث الثالث

خصائص القرآن الكريم

خصائص القرآن الكريم كثيرة منها

أولا: كتاب إلهي:

أولى خصائص القرآن الكريم، أنه كتاب الله تعالى، الذي يتضمن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ، فهو إلهي المصدر: (100%) لفظاً ومعنى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد ﷺ عن طريق الوحي الجلي، وهو نزول " الرسول الملكي " جبريل عليه السلام على " الرسول البشري " محمد، وليس عن طرق الوحي الأخرى من الإلهام أو النفس في الرّوع، ومن الرؤيا الصادقة أو غيرها.

قال تعالى: {كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١].

- قال سبحانه يخاطب رسوله: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾} [النمل: ٦].

- وقال تعالى: {وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا} [الإسراء: ١٠٥].

وقد اقتضت حكمت الله تعالى أن ينزله منجماً وفقاً للحوادث ليكون أرسخ في مواجهة المحن والشدائد التي تنزل به وبأصحابه، كما قال تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾} [الفرقان: ٣٢ - ٣٣].

وحكمة أخرى، وهي أن يقرأه الرسول الكريم على المؤمنين

به على مهل، وحيث يستوعبونه حفظاً وفهماً وعملاً، كما قال الله عز وجل:{وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾} [الإسراء: ١٠٦].

ولكن القرآن الكريم عند الله تعالى كتاب معلوم أوله وآخره، مسجل في أم الكتاب أو اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون، كما صرح بذلك القرآن الكريم نفسه:{حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾} [الزخرف: ١ - ٤].

وقال تعالى:{بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾} [البروج: ٢١ - ٢٢].

وقال تعالى:{إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾} [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وأي قارئ للقرآن الكريم - له عقل وحس - يستيقن أنه ليس كلام بشر، وأنه متميز عن كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي يتمثل في الحديث النبوي، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية، وإن وجود آية قرآنية ضمن حديث نبوي، يجعل لها نوراً خاصاً يحس به من يقرؤها أو يسمعها، ويشعر أنها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها[1].

ومن روائع ما قال الإمام ابن القيم عن " الخطاب القرآني " قوله في كتابه " التبيان في أقسام القرآن ": تأمل في خطاب القرآن تجد ملكاً

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن الكريم د. يوسف القرضاوي صـ21.

له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومواردها إليه، مستوياً على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، يعطي ويمنع، يثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور، نازلة من عنده، دقيقها وجليها، وصاعدة إليه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمهم عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه لصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب على شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافهم وحسنها ونعيمها ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير

إليه[1].

ثانياً: كتاب محفوظ:

ومن خصائص القرآن الكريم: أنه كتاب محفوظ، تولى الله تعالى حفظه بنفسه، ولم يكل حفظه إلى أحد كما فعل مع الكتب المقدسة الأخرى[2].

وقد نوه الله سبحانه بعظمة القرآن الكريم بذكر حفظه قبل نزوله في آيات منها:

-{كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾} [عبس: ١١ - ١٦].

- وأما حفظ الله تعالى للقرآن الكريم أثناء نزوله فيدل عليه قوله تعالى:{وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء: ١٠٥].

- وأما حفظ الله تعالى للقرآن الكريم بعد نزوله فيدل عليه قوله تعالى:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾} [الحجر: ٩].

والصيغة تدل على التأكيد من عدة أوجه يعرفها دارسو العربية، منها: أسمية الجملة وتأكيدها بحرف إن، ودخول اللام المؤكدة على الخبر (لحافظون)[3]، ولحفظ الله إياه فقد بقي كما هو: طوداً أشمّ، عزيزاً لا يُقتحم حِماه، وكل محاولة لتغيير حرف منه مقضي عليها

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن الكريم د. يوسف القرضاوي صـ21، نقلاً عن التبيان في أقسام القرآن.

(2) المصدر نفسه صـ22.

(3) المصدر نفسه صـ24.

بالفشل، قال تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢} [فصلت: ٤١ - ٤٢].

وقد هيأ الله تبارك وتعالى للقرآن العظيم ظروفاً تختلف عن الكتب السابقة فحفظه دونها ومن ذلك:

1ـ هيّأ أمة قوية في ذاكرتها وحافظتها؛ ذلك أن العرب الأوائل في جاهليتهم كانوا متمكنين من ذلك حيث يروون ألوفاً من أبيات الشعر بغير تدوين، إنما يعتمدون في ذلك على الحفظ.

2ـ هيّأ للقرآن العظيم سهولة الحفظ قال تعالى:{ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧} [القمر: ١٧].

3ـ هيّأ له أمة مستقرة ممكنة في الحفظ والفهم والأمانة، فكان الحفاظ يحفظونه على يدي رسول الله ﷺ حتى يُتقِنُوا الحفظ، ثم يُدوّنونه بعد ذلك، ويقف عليهم بنفسه في مراجعة ذلك.

4ـ هيّأ له مراجعة النبي ﷺ له في الملأ الأعلى، حيث كان يحفظ ما يوحي إليه ثم يُراجعه على جبريل عليه السلام مرة كل سنة، وفي السنة الأخيرة من حياته المباركة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله ﷺ مرتين.

5ـ بعد الفراغ من تدوينه لم يَعُد هناك مجال لعبث عابث، وظل الحفاظ المتقنون يُراجعون كل نسخة تكتب من المصحف مراجعة فاحصة ولمّا أصبح للمصحف مطابع خاصة، كُونت لجان متخصصة ومتأهلة من كبار حُفاظ العالم الإسلامي تُراجع وتُدقق كلّ حرف منه

قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل تحقق للقرآن العظيم ذلك الحفظ الذي قدّره الله له منذ الأزل وهو اللوح المحفوظ، وأنجز وعده الصادق:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ } [الحجر: ٩] [1].

وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى[2].

ثالثا: معجز:

ومن خصائص القرآن الكريم: الإعجاز، فهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ التي لم يتحدّ العرب بغيرها، برغم ما ظهر على يديه من معجزات لا تحصى[3].

1. تعريف المعجزة:

أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله[4].

2. شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيع أن نتلمس شروطها:

أ ـ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: مثل عدم إحراق النار لسيدنا

---

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 109.
(2) المصدر نفسه صـ 107.
(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 32.
(4) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (4/ 3)، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم صـ 14.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعدم إغراق الماء لموسى عليه السلام وقومه وعدم سيلانه عليهم، ومثل القرآن الكريم.

ب ـ أن يكون الخارق من صنع الله وإنجازه، قال تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾} [غافر: ٧٨].

ج ـ سلامتها من المعارضة.

س ـ أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها.

س ـ التحدي بها.

ك ـ أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عز وجل.

ل ـ تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة[1].

وقد توافرت هذه الشروط في إعجاز القرآن الكريم.

3ـ القرآن الكريم هو المعجزة العظمى:

لما زعم المشركون أن محمداً ﷺ هو الذي ألف القرآن الكريم، قال الله تعالى:{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾} [الطور: ٣٣ - ٣٥].

ثم تحداهم بعشر سور{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا

(1) مباحث في إعجاز القرآن صـ 18.

لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾} [هود: ١٣ - ١٤].

ثم تحداهم بسورة واحدة{وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾} [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

وقال تعالى أيضاً:{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾} [يونس: ٣٨].

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله:{ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾} [الإسراء: ٨٨].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) (1).

إن معجزات الأنبياء عليهم السلام تتماثل من حيث إنها حسية ومخصوصة بزمنها، أو بمن حضرها، أو منقرضة بانقراض من شاهدها.

(1) رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان صـ 93.

أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهي القرآن الكريم، الذي لم يعط أحد مثله، وهو أفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة والحجة واستمرار تحديه في أسلوبه وبلاغته ومعانيه وأخباره، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتناء معارضيه بمعارضته فلم ولن يقدروا، فعم نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سيوجد إلى آخر الدهر، ولذلك فإن محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء أتباعاً[1].

هذا شرح للحديث على وجه الإجمال، وأما أسباب اختصاص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء بهذه المعجزة الظاهرة، يبينها محمود الألوسي فيقول: لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته:

ـ أن معجزة كل رسول موافقة للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر من أناس دهره،..فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن الكريم في إيجازه وإعجازه، بما عجز عنه الفصحاء وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء؛ ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاته وإن اختلفت متشاكلة المعاني مختلفة العلل.

ـ إن المعجزة في كل يوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم.. والعرب أصح الناس أفهاماً وأحدّهم أذهاناً، فخصّوا من معجزات القرآن الكريم بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه

---

(1) رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر صـ 155.

أذهانهم[1].

وهذه المعجزة جمعت بين الدليل لما فيه من الإعجاز، وغيره من وجوه الدلالة، وبين المدلول بما فيه من بيان الإيمان، وأدلته، وبيان الأحكام الشرعية، والقصص، والأمثال، والوعد والوعيد، وغير ذلك من علومه التي لا تنحصر، ثم جعل حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى.. ولهذا توفرت الدواعي على حفظه على مر الدهور والأعصار، ففي كل قرن ترى من حفظته ما يفوت العد والإحصاء ويستنفذ نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة[2].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: **(فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً)** آية من آيات نبوته، كما قال النووي: فإنه أخبر عليه السلام بهذا في زمن قلة من المسلمين، ثم منّ الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم حتى انتهى الأمر واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة ولله الحمد على هذه النعمة وسائر نعمه التي لا تحصى[3].

- توضيح هذا الإعجاز:

- بيان حال محمد صلى الله عليه وسلم:

إن وضعه صلى الله عليه وسلم من الناحية العلمية معروف عند المشركين فهو:

---

(1) رسالة خاتم النبيين د. ثامر بن ناصر صـ 155.
(2) المصدر نفسه صـ 155.
(3) شرح مسلم للنووي (2/ 188).

ـ بشر مثلهم، وليس من جنس آخر.

ـ أمي، لا يقرأ ولا يكتب.

ـ تجاوز الأربعين ولم يكن معروفاً قبل ذلك بالخطابة ولا بالشعر، ولا بالرياسة في مجال الكلام، بل كان يعمل بمجال بعيد عن الكلمة وهي التجارة، ولم يُحفظ عنه قبل البعثة أثر يدل على إنشائه لقصيدة أو حتى خطبة نثرية.

ـ أنه صلى الله عليه وسلم أتى بكتاب نسبه إلى الله تعالى، أجمع العرب على فصاحته وبلاغته، وحسن نظمه، واشتماله على علوم شتى، وآداب تترى.

- وقوع التحدي بهذا الكتاب:

ـ أن هذا التحدي قائم في وجه كل معارض للرسول.

ـ التحدي بأن يأتوا سورة من مثله.

ـ وللمعارض أن يستعين بمن شاء من أعوان وشهداء سواء كانوا من الجن، أو من الإنس، أو من الجن والإنس مجتمعين معاً.

- وجود دواعي التحدي:

ـ العرب أهل لغة، فصاحة وبلاغة وبيان.

ـ أن معارضي الرسول أهل عداوة عظيمة له.

ـ وهم حريصون أشد الحرص على إبطال دعوته بأي وسيلة ومن أي طريق.

- نتيجة التحدي صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم:

عجزوا غاية العجز عن الإتيان بسورة من مثله، ولو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن لفعلوا، ولكنهم لم يقدروا؛ إذ كلام الفقير الناقص الجاهل لا يكون أبداً مثل كلام الذي له الكمال المطلق، والغنى المطلق، والقدرة المطلقة، والعلم المطلق، فكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فبالضرورة ليس لكلامه مثيل ولا شبيه، ولا يشتبه كلامه بكلام المخلوقين إلا على من اختل عقله، وغاب فؤاده، وهذا برهان ساطع ودليل قاطع على صحة ما جاء به صلى الله عليه وسلم، ويبقى على من عجز عن هذا التحدي قراران لا مفر من اتخاذ أحدهما:

ـ إما أن يؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله، وأن القرآن الكريم حق كلام الله، وهذا هو مقتضى العقل وسبيل الفطرة السليمة وطريق الناجين في الدنيا والآخرة.

ـ وإما أن يعاند وهو يعلم، من نفسه أن القرآن الكريم حق، وهذا سبيل الجاحدين، ومقتضى الجهل والعناد، وأصحاب النفوس المريضة، والقلوب السقيمة، وطريق الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقد كان هذا التحدي سبباً في إسلام الكثيرين؛ لأن القرآن الكريم بهذه الاستثارة للعقول والألباب والقلوب يدعو للتفكر في القرآن الكريم؛ بشكل أكبر، ويجعل الإنسان الشاك يتدبر أكثر وأكثر، حتى يصل إلى

النهاية المحمودة إذا كان ممن يبحث الحق متجرداً من الهدى[1].

4- وجوه إعجاز القرآن الكريم:

قد كتب العلماء البلغاء قديماً وحديثاً حول " إعجاز القرآن " ووجوه هذا الإعجاز، والفتن في ذلك كتب شتى، فمنهم من عنى بإخباره بالغيوب ومنهم من عنى بالنظم والعبارة والأسلوب أو ما يسمى " الإعجاز البياني " وقد كتب فيه القدماء مثل الباقلاني والرماني والخطابي والجرجاني والرازي وغيرهم، وكتب فيه المحدثون، مثل: مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب في كتابه " التصوير الفني في القرآن " ومثله " مشاهد القيامة في القرآن " وطبقه في تفسيره " في ظلال القرآن " وكتاب الدكتور بدوي طبانة " بلاغة القرآن " والدكتور محمد عبد الله دراز " النبأ العظيم " ومنهم من عني بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي الذي جاء به القرآن، كما فعل الشيخ رشيد رضا في كتابه " الوحي المحمدي " حيث جدد التحدي بالقرآن، وبيّن المقاصد التي جاء القرآن ليحققها في الحياة، وأنه يستحيل أن يأتي بها رجل أمي في أمة أمية، وقد فاقت كل ما جاء به الفلاسفة والمصلحون، ومثل ذلك: المقالات التي كتبها العلامة محمد أبو زهرة في مجلة " المسلمون " الشهرية المصرية، تحت عنوان " شريعة القرآن دليل على أنه من الله ".

وفي عصرنا ظهر نوع جديد أطلق عليه " الإعجاز العلمي " ويقصد به: ما تضمنه القرآن الكريم من إشارات ودلالات على " حقائق

---

(1) رسالة خاتم النبيين محمد صـ 157.

علمية " كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن الكريم، وتعتبر سابقة لعصرها ولا تتصور أن تصدر من رسول أمي في بيئة أمية، وفي عالم لا يعرف عن هذه الحقائق شيئاً[1]، وأشتهر في هذا الميدان كل من الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور زغلول راغب محمد النجار.

وقد لخص الدكتور زغلول النجار جوانب الإعجاز القرآني فقال: وتتعدد جوانب الإعجاز القرآني: بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء مثله بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله ومن هذه الجوانب:

- الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي.
- الإعجاز العقدي " الاعتقادي ".
- الإعجاز التعبدي " العبادي ".
- الإعجاز الأخلاقي.
- الإعجاز التشريعي.
- الإعجاز التاريخي.
- الإعجاز التربوي.
- الإعجاز النفسي.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 34.

ـ الإعجاز الاقتصادي.

ـ الإعجاز الإداري.

ـ الإعجاز التنبؤي.

ـ الإعجاز العلمي.

ـ إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في أسلوبه، أو مضمونه أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك[1].

رابعاً: كتاب مبين وميسر:

ومن خصائص القرآن الكريم: أنه " كتاب مبين " ميسر الفهم والذكر ومع السمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم، فإنه سلس كالماء العذب الزلال، ميسر لكل من يريد أن يعقل ويذكر، قال تعالى:{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾} [القمر: ١٧].

وقال تعالى:{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾} [مريم: ٩٧].

لقد نوه الله تعالى بشأن القرآن العظيم وأخبر أنه يسّره وسهله ليتذكر الخلق ما يحتاجونه من التذكير، ممن هو هدى لهم وإرشاد لمصالحهم الشرعية.

وسبب تيسيره: أنه نزل بأفصح اللغات وأبينها، وجاء على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم.

---

(1) من آيات الإعجاز العلمي السماء في القرآن صـ 12، 13.

ومعنى تيسيره: يرجع إلى تيسير ما يراد منه، وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به بدون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق(1).

وهذا الكتاب مبين؛ لأن الله أنزله لتعقل معانيه، وتفقه أحكامه، وتدرك أسراره وتتدبر آياته فهو مبينٌ لا غامضاً ولا مغلقاً ولا ملغزاً ولا معقداً.

قال تعالى:{إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢} [يوسف: ٢].

وقال تعالى:{كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣} [فصلت: ٣].

وقد وصف الله هذا القرآن الكريم بأنه{نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ} [المائدة: ١٥].

وقال تعالى:{هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ} [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى:{وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ} [النحل: ٦٤].

وإلى غير ذلك من الآيات التي استفاضت في هذا المعنى(2).

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 103.
(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 40.

خامسا: القرآن الكريم كتاب هداية:

ومن خصائص القرآن الكريم أنه كتاب هداية للعالمين أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

1. قال تعالى:{ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾} [البقرة: ٢٥٧].

2- وقال تعالى:{الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾} [إبراهيم: ١].

وقد تحقق هذا حينما اهتدى العرب بهداه فخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى قمة الحضارة والمدنية، ومن الذل والتبعية إلى السيادة والعالمية، ثم أوصلوا هدايته إلى العالم من حولهم بأمانة وتضحية وإخلاص، فإذا بالعالم يكسى بحلة العزة والرفعة والبهاء والجمال وأثبت واقع المسلمين عبر الزمن أنهم أصبحوا بتمسكهم بالقرآن الكريم أرقى الأمم، وبتخلفهم عنه وأخذهم بما عند الأمم من ضلال أخس الأمم[1].

3- وقال تعالى:{ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾} [الإسراء: ٩].

يؤكد الله تعالى أن هذا القرآن الكريم أقوم من أي هداية يراها البشر، ولم يستطع أيُّ باحث موضوعي أن يجد خللاً في

(1) إعجاز القرآن الكريم د. محمد صادق درويش صـ 46).

تشــريع القــرآن الكــريم، أو أن يجــد فــي التشــريع الوضــعي مــا يصــل إلــى تشــريع القــرآن الكــريم فضــلاً عــن أن يتفــوق عليــه، وهــذا يوجــب علــى العاقــل اســتدامة القــرآن الكــريم وملازمــة العمل به.

إن ما في القرآن الكريم من هداية وتشريع صالح لكل زمان ومكان لا تبطل قيمته، بل لا يصلح إلا هو، مهما اختلفت العصور وتنوعت الحضارات إنه تسامى على كل قانون عرفته الأمم قديماً وحديثاً، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية للفقه الإسلامي أنه مصدراً أساسياً نقتبس منه القوانين، وإن القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب من تشريع القرآن الكريم [1].

وكيف لا يكون كذلك وهو تشريع رباني شامل لجميع النواحي، وكافل لإحقاق الحق وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم: المالية والاجتماعية والأسرية والدولية في حين أنه لم يوجد إلى الآن تشريع شامل أو عادل مع ما مرّ على الإنسانية من تجارب وخبرات حتى إن الله تعالى تحدّى العالم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، والمثلية تشمل جميع جوانب القرآن سواء الألفاظ والمعاني، وإذا عجزوا عما هو من جنس ما يستطيعونه ويتفوقون فيه وهو نظم القرآن الكريم، فهم أشدّ عجزاً عن تشريع القرآن الكريم وهدايته، لما يحتاجه إلى علم محيط بكل شيء وليس هذا إلا الله عز وجل[2].

(1) إعجاز القرآن الكريم د. محمد درويش صـ 47.
(2) إعجاز القرآن الكريم د. محمد درويش صـ 48.

4ـ وقال تعالى:{أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠} [المائدة: ٥٠].

استنكر الله تعالى على من أعرض عن تشريعه ولجأ إلى تشريع الناس وما هذا إلا لأنه لا تشريع أحسن منه، ولا هداية مثله، فكيف يترك إلى ما دونه(1)؟

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرّ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به الضلالات والجهالات بما يضعونها بآرائهم وأهوائهم.

{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أي: ومن أعدل من الله في حكمه، لمن عقل عَن الله شرعهُ، وآمن به وأيقن، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء(2).

5- قال الله تعالى:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائدة: ٣].

يحثنا الله تعالى في هذه الآية على التمسك بهديه من خلال مدحه دينه بالكمال والتمام، والنفوس تتطلع إلى ما كان كذلك(3).

(1) المصدر نفسه صـ 48.
(2) إعجاز القرآن الكريم صـ 48، تفسير ابن كثير (2/ 68).
(3) إعجاز القرآن الكريم د. محمد درويش صـ 49.

هذه أكبر نعم الله تعالى عن هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا } أي: فأرضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه[1].

وكمال دينه سبحانه وتمامه بكمال مصدره الأصل القرآن الكريم، ولهذا لا يملك من يتلو القرآن الكريم ويتدبر معانيه إلا أن يخرّ ساجداً لعظمة منزله.

قال تعالى:{ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الحشر: ٢١].

سادسا: كتاب الإنسانية كلها:

ومن خصائص القرآن الكريم أنه كتاب الإنسانية كلها الذي خاطب الله تعالى به جميع البشر إلى يوم القيامة فلم يُقيد بزمان، ولا بمكان، ولا جنس ولا طبقة، بل هو موجه إلى الثقلين، خاطبهم جميعاً بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من العقائد الصحيحة والعبادات الحكيمة والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة التي تستقيم بها حياتهم.

(1) تفسير ابن كثير (2/ 13).

ولقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة على عالمية القرآن الكريم [1].

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن العظيم:

ـ قوله تعالى:{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١].

ـ وقال تعالى:{وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾} [الأنبياء: ١٠٧].

ـ وقال تعالى:{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾} [الإسراء: ٨٩].

ـ وقال تعالى:{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾} [الزمر: ٢٧].

- وقال تعالى:{إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾} [الزمر: ٤١].

فالقرآن الكريم لا يخاطب صنفاً واحداً من البشر له تجاه عقلي أو نفسي معين، مغفلاً عن عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة كلا، إنه يخاطب كل الأصناف، ويشبع كل الاتجاهات الإنسانية السوية، في توازن لا يقدر عليه إلا منزل القرآن الكريم وخالق الإنسان[2].

---

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 110.

(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 60.

1ـ إن طالب الحقيقة العقلية يجد في القرآن الكريم ما يرضي منطقه ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء وأن يعتمد على البرهان وحده في العقليات.

قال تعالى:{قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١].

وعلى المشاهدة والتجربة في الحسيات، قال تعالى:{ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ } [الأعراف: ١٨٥].

وعلى الصدق وتوثيق الرواية في النقليات، قال تعالى:{ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف: ٤].

ويكفي أن مشتقات العقل مثل " يعقلون " و " تعقلون " ذكرت في القرآن الكريم ثماني وخمسين مرة، وذكرت مشتقات الفكر سبع عشرة مرة، وذكرت كلمة " الألباب " أي: العقول ست عشرة مرة، وهذا غير الآيات التي اشتملت على كلمات، ومشتقات أخر مثل: النظر، والاعتبار والتدبر، والحجة، والبرهان، والنهى، والحكمة، والعلم، ونحو ذلك مما يبحث عنه طلاب الحقائق العقلية، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن الكريم.

2ـ والباحث عن " الحقيقة الروحية " يجد في القرآن الكريم ما يرضى ذوقه ويغذي وجدانه، ويشبع نهبه وتطلعاته في آفاق الروح، في مثل قصة موسى والعبد الصالح الذي قال الله فيه:{ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)} [الكهف: ٦٥].

يجد الباحث عن " الإيمان " في الخطاب القرآني ما ينشئ الإيمان البصير بالله ورسالاته ولقائه وجزائه، ويطارد الجحود والشك والنفاق، ويقيم الأدلة الناصعة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته وواسع رحمته، وعلى بعثه رسله{رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥].

وعلى عدالة الجزاء في الآخرة:{لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى} [النجم: ٣١].

ويجلي له القرآن الكريم مصير المؤمنين نجاة وحياة طيبة في الدنيا، وفلاحاً في الآخرة، ومصير المكذبين: شقاء في الدنيا، وعذاباً في العقبى، الإيمان في القرآن الكريم يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويسامح ولا يتعصب، فهو يوجب الإيمان بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل، قال تعالى:{كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ} [البقرة: ٢٨٥].

3ـ والحريص على " القيم الأخلاقية " يجد في القرآن الكريم ضالته وطلبته، وإذا كان موضوع الأخلاق هو " الخير " فالقرآن الكريم قد دل على " الخير " كما هدى إلى " الحق " وقد جعل فعل الخير إحدى شعب ثلاثة لمهمة المجتمع المسلم.

قال تعالى:{وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧].

ولكنه لم يكتف من المسلم بفعل الخير، بل طلب أن يدعو إليه ويدل عليه، قال تعالى:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ} [آل عمران: ١٠٤].

4ـ وعاشق القيم الجمالية يجد في القرآن الكريم ما ينمي حاسته الجمالية، ويغذي شعوره الفني، وذلك بما لفت إليه القرآن الكريم الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة في السماء{وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ } [الحجر: ١٦].

وقال تعالى:{وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ} [الملك: ٥].

وجمال الطبيعة في الأرض ابتداء من جمال النبات، قال تعالى: {وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ} [الحج: ٥].

وقال تعالى:{فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل: ٦٠].

وجمال الحيوانات{ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾} [النحل: ٦].

وجمال الإنسان{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [التغابن: ٣].

وجمال المخلوقات كلها{صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ} [النمل: ٨٨].

ووراء ذلك كله ما احتواه أسلوب القرآن الكريم ذاته من جمال بياني معجز في نظمه ومعناه وفي شكله ومضمونه، وصفه المشركون أنفسهم فقالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه[1].

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 62.

سابعاً: كتاب الزمن كله:

من خصائص القرآن الكريم: أنه كتاب الزمن كله، وكتاب الإنسانية كلها وكتاب الدين كله، وكتاب الحقيقة كلها، ومعنى أن القرآن الكريم كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده، بل القرآن الكريم هو الكتاب الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الكتاب الصالح والمصلح لكل زمان ومكان[1]، مهما اختلفت العصور وتنوعت الحضارات، لا تبطل قيمته، بل لا يصلح إلا هو.

إن تعاليم القرآن الكريم موجهة للعالم بأسره، فهي للناس في شتى أرجاء العالم كافة، بغض النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتطهر نفوسهم، وتهذب أخلاقهم وتوجه مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة، وقد أكدّ الله عز وجل أن في القرآن الكريم حلولاً لجميع قضايا البشر{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾} [النحل: ٨٩].

فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو ليس مجرد كتاب صلوات أو أدعية نبوية، أو غذاء للروح أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنه أيضاً القانون السياسي وكنز العلوم، ومرآة الأجيال، إنه سلوى الحاضر، وأمل المستقبل[2].

---

(1) المصدر نفسه صـ 56.

(2) دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية د. محمد عبد الله دراز صـ 18.

ثامناً: نزوله بأرقى اللغات وأجمعها:

لقد اختار الله - عز وجل - اللغة العربية لتكون آخر كتبه، وهذا الاختيار من الحق - عز وجل - لهذه اللغة العظيمة إنما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة واتساع وقدرة على الاشتقاق، والنحت والتصريف وغنى في المفردات والصيّغ والأوزان(1).

فكل دارس للغات العالم يُصرُّ بأن اللغة العربية هي أرقى اللغات وأجمعها للمعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة وأحسنها تهذيباً، وأكثرها إيضاحاً وبياناً للمطلوب ولذلك أشاد القرآن الكريم بها في عدة آيات منها:

- قال تعالى:{ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ } [الزخرف: ٣].

- وقال تعالى:{ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾} [يوسف: ٢].

لقد أراد الله تعالى أن يكون القرآن الكريم كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور؛ لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر، وهي اللغة العربية، لأسباب يلوح لي منها، أن تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرّفاً في الدلالة على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جارياً على أسلوب

---

(1) لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها صـ 11، 12 إبراهيم محمد أبو عباه.

الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب[1].

تاسعاً: تصديق القرآن الكريم لكتب الله وهيمنته عليها:

قال تعالى:{ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } [المائدة: ٤٨].

ومعنى قوله:{ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } أي: أن القرآن العظيم رقيب على الكتب السابقة، لأنه يشهد بصحتها، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويُبيّنُ أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها.

أو على معنى أنه أمين عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صُدّق وما أخبر بزيفه فهو باطل أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة أو على معنى أنه دال على صدقها، أي هو دليل على أنها من عند الله؛ لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب[2].

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم " المهيمن " يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً، وأميناً، وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة.

فقال تعالى:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ } [الحجر: ٩].

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 98.
(2) تفسير الطبري (6/ 266 - 267).

1ـ علاقة الهيمنة بالتصديق:

ولاشك أن مفهوم الهيمنة أتمُّ وأشمل من مفهوم التصديق؛ لأن الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها وتقرير أصولها وشرائعها، بل تتعدى ذلك فتُبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن الكريم بذلك مهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب، وشاهد بكونها من عند الله تعالى، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق ولكنه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف وتسرّب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمفهومها إذن أتمّ، وأشمل من مفهوم التصديق(1).

2ـ مظاهر هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كتب الله المنزلة قبله ـ فوق ما تقدم من تصديقه لها ـ مظاهر متعددة من أهمها ما يلي:

أ ـ إخباره بتحريف الكتب السابقة وتبديلها:

قال تعالى:{ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾} [البقرة: ٧٩].

ب ـ بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق:

ففي جانب العقائد على سبيل المثال نفي القرآن العظيم ما صرّحت به

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 124.

الأناجيل المحرفة من قتل عيسى عليه السلام وصلبه.

فقال تعالى:{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: ١٥٧].

وحكم على النصارى بالكفر لقولهم بالتثليث، وألوهية المسيح، فقال تعالى:{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)} [المائدة: ٧٢ - ٧٣].

أما التوراة المحرّفة فإنها تنسب إلى الله تعالى كثيراً من النقائص والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها، فلقد أخبر القرآن العظيم أن اليهود نسبوا إلى الله عز وجل الولد، كما وصفه اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بالفقر، والبخل وغل اليد.

فبين القرآن الكريم كذبهم وزورهم وبهتانهم.

قال تعالى:{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠)} [التوبة: ٣٠].

- وقال تعالى:{لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)} [آل عمران: ١٨١].

- وقال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ

مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ} [المائدة: ٦٤][1].

ج ـ بين القرآن الكريم كثيراً من المسائل التي أخفوها:

فمن ذلك: أن الدّارس لأسفار العهد القديم يرى أنها: قد خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه - وإذا كانت اليهودية في أصلها تقرر البعث، والنشور، والحساب، والجنة والنار، كما يُنبئ بذلك القرآن الكريم- ذلك يدلُّ على أن اليوم الآخر وما فيه وما يتصل به، من المسائل التي أخفاها أهل الكتاب[2].

قال تعالى:{ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾} [المائدة: ١٥][3].

* * *

(1) عظمة القرآن الكريم صـ 126.
(2) المصدر نفسه صـ 126.
(3) المصدر نفسه صـ 126.

المبحث الرابع

مقاصد القرآن الكريم

دعا القرآن الكريم إلى الكثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلح الإنسانية بغيرها والتي من أهمها:

أولا: تصحيح العقائد والتصورات:

أ- القرآن العظيم من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد:

وإنكار للشرك وبيان لحسن عاقبة المشركين في الدّارين وقد اعتبر القرآن الكريم الشرك أعظم جريمة يقترفها مخلوق.

قال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨].

إن حقيقة الشرك انحطاط بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون - كما أراد الله له - إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جماداً، أو نباتاً، أو حيواناً، أو إنساناً إلى غير ذلك.

قال الله تعالى:{فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾} [الحج: ٣٠ - ٣١].

والدعوة إلى التوحيد هو المبدأ الأوّل المشترك بين رسالات النبيين جميعاً، فكل نبي نادى قومه أن{ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ } [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى:{ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} [النحل: ٣٦].

وقال تعالى:{وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾} [الأنبياء: ٢٥].

فلا مكان للوسطاء بين الله عز وجل وبين خلقه، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ} [غافر: ٦٠].

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرفة من عقيدة التوحيد، حتى اليهود جعلت الرب أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم ويخاف، ويصارع إسرائيل فيصرعه إسرائيل، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعد منه بمباركة نسله فأطلق سراحه والنصرانية، تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنية حتى امتلأت الكنائس بالصور والتماثيل، وأخذت عقيدة التثليث والفداء من عقيدة الهنود في " كرشنة " كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة ووضعوا اسم " يسوع " [1].

ب ـ تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

ـ بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة:

قال تعالى:{كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ} [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى:{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥].

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 66.

وقال تعالى:{ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ } [النحل: ٦٤].

ـ بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار:

قال تعالى:{ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } [النساء: ١٦٥].

فليس الرسل آلهة ولا أبناء آلهة، إنما هم بشر يوحى إليهم{قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ} [الكهف: ١١٠].

يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هداية القلوب ولا السيطرة عليها{فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾} [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

ـ **تفنيد الشبهات** التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل، كقولهم:{إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا } [إبراهيم: ١٠].

وقولهم{وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ } [المؤمنون: ٢٤].

فقد رد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله تعالى:{قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ} [إبراهيم: ١١].

ومثل قوله تعالى:{ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ } [الإسراء: ٩٥][1].

ـ بيان عاقبة الذين صدقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين، وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم تنتهي

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 67.

دائماً لهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

قال تعالى:{وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَالِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾} [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال تعالى:{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَالِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾} [يونس: ١٠٣].

ج ـ تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة:

ومما عني به القرآن الكريم وكرره في سوره المكية والمدنية:

الإيمان بالآخرة، وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار، وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى:

ـ فمنها: إقامة الأدلة على إمكان البعث ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأهم أول مرة.

قال تعالى:{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧].

ـ ومنها: التنبيه على خلق الأجرام العظيمة التي يعتبر خلق الإنسان بجوارها شيئاً هيناً.

قال تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾} [الأحقاف: ٣٣].

- بيان حكمة الله تعالى في الجزاء حتى لا يستوي المحسن والمسيء،

والبر والفاجر في النهاية تكون الحياة عبثاً وباطلاً يتنزه الله تعالى عنه، قال تعالى:{ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾} [ص: ٢٨].

وقال تعالى:{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى:{أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾} [القيامة: ٣٦].

- إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أن آلهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهل الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم وهذا ما كذبه القرآن الكريم وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحد، ولا ينفع الإنسان إلا سعيه، ولا يحمل وزر غيره{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾} [النجم: ٣٨ - ٣٩].

قال تعالى:{مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [غافر: ١٨].

قال تعالى:{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾} [المدثر: ٤٨].

وقال تعالى:{مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ } [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى:{وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: ٤٩].

- بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان، وما أعد للكفرة الفجرة من العقاب والخسران، ولهذا كثر حديث القرآن الكريم عن القيامة وأهوالها، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزان الذي توزن به الحسنات

والسيئات حتى لا يضيع على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفساً شيئاً ولا يحمّل وازرة وزر أخرى وعن الجنة وما فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم الحسي والمعنوي؛ ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتداد لإنسان الدنيا روح وجسم، فلابد أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما[1].

ثانيا: تزكية النفس البشرية:

ومن مقاصد القرآن: الدعوة إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاح في الأولى والآخرة لها إلا بالتزكية، كما قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس: ٧ - ١٠].

فالنفس بفطرتها مستعدة للفجور الذي يدنسها ويدسيها، استعدادها للتقوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختار أي الطريقين: طريق التزكية أو طريق التدسية، ولا ريب أنه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريق الفلاح، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤)} [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: {وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)} [طه: ٧٥ - ٧٦].

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 68.

ورسالات الأنبياء جميعاً كانت - من مقاصدها - الدعوة إلى التزكية، ولهذا رأينا موسى - عليه السلام - يقول لفرعون حين أرسل إليه من ربه:{هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)} [النازعات: ١٨ - ١٩].

وكان من الشعب الأساسية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم: التزكية، كما جاء ذلك في آيات أربع من كتاب الله الكريم، منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل للأمة المسلمة الموعودة:{رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩)} [البقرة: ١٢٩].

ومنها قوله عز وجل:{كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (١٥١)} [البقرة: ١٥١].

وقال سبحانه:{لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤)} [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢)} [الجمعة: ٢].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ} [النور: ٢١].

كما لا بد من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى:{وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ} [فاطر: ١٨].

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة:{خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [التوبة: ١٠٣].

كما بين أثر الآداب التي حث عليها القرآن في هذه التزكية المنشودة للأنفس، قال تعالى:{قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠} [النور: ٣٠].

وقال في أدب الاستئذان:{وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ} [النور: ٢٨].

إن الذي لا ريب فيه: إن صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاح الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى بتزكية هذه الأنفس حتى تنتقل من " النفس الأمارة بالسوء " إلى " النفس اللوامة "، ثم " النفس المطمئنة "، وهذا يحتاج إلى جهاد لكنه جهاد غير ضائع، كما قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩} [العنكبوت: ٦٩][1].

ثالثا: عبادة الله وتقواه:

1 ـ لقد بين القرآن الكريم أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى:

{وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦} [الذاريات: ٥٦].

فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها، قال تعالى:{وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا

---

(1) كيف تتعامل مع القرآن الكريم صـ85.

تُحْصُوهَآ} [إبراهيم: ٣٤].

ومن هذه النعم، نعمة الإيجاد، ونعمة الرزق، ونعمة العقل، ونعمة الإرادة، ونعمة القدرة، ونعمة البيان " النطقي " و " الخطي " ونعمة تسخير الكون للإنسان، وعدد القرآن جملاً من هذه النعم الوفيرة السابغة في عدد من سور القرآن، أظهرها في سورة النحل التي تسمى " سورة النعم "، ومن حق الخالق الرازق المنعم أن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يطاع فلا يعصى، ولا يتأتى ذلك إلا بالعبادة الخالصة له، فالعبادة من حقه وحده جل وعلا، ولذا قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾} [البقرة: ٢١ - ٢٢].

وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواه ووعد ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى، وعبودية الإنسان له، فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري - جل وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله حكيماً عليماً، خلق كل شيء وقدره تقديرا، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، وإذا كان القرآن المجيد وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه، ولذلك جعل الله تعالى دائرة العبادة التي خلق الله تعالى لها الإنسان، وجعلها

غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: أن تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة نشاطه وأعماله[1].

فالعبادة في مفهوم الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضا: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد على الكفار والمنافقين، والإحسان على الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا لقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة[2].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله سواء إن كان ذلك في العبادة المحضة أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها[3].

ولذلك يحرص المسلم أن تكون حياته كلها عبادة من لحظة التكليف إلى الموت، إمتثالاً لقول الله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

(1) العبادة في الإسلام للقرضاوي صـ53.

(2) مجموع الفتاوى لابن تيميه (10 / 150).

(3) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم صـ185.

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾} [الأنعام: ١٦٢].

وهذه العبادات كلها تعد المسلم لتقوى الله، كما جاء في الآية التي ذكرناها:{ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١][1].

2 ـ تقوى الله:

وهي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقاية من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله[2]، وأساس تقوى الله خشية الله وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه وقال: { ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾} [الحج: ٣٢].

والله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه لتكون حافزاً له على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: ٣٥].

وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ } [التوبة: ١١٩].

(1) كيف نتعامل مع القرآن الكريم صـ79.
(2) فقه النصر والتمكين للصلابي صـ204.

وقال تعالى:{فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [الأنفال: ١].

ويذكر الله تعالى في القرآن الكريم التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكون دافعاً للانتهاء عنها، كما في قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

بل يقص علينا القرآن الكريم أن الرسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله تعالى، كما نجد في سورة الشعراء نوحاً، وهوداً، وصالحاً ولوطاً، وشعيباً يقول كل منهم لقومه:{فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [آل عمران: ٥٠].

ولهذا جعل القرآن الكريم وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ } [النساء: ١٣١].

ولم يكتف القرآن الكريم من المؤمنين بمجرد التقوى، بل قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ }
[آل عمران: ١٠٢]، ومعناه: بذل الجهد واستفراغ الوسع في تقواه عز وجل، في حدود الطاقة والاستطاعة، كما قال في الآية الأخرى: {فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، وليست هذه الآية ناسخة للآية الأخرى، بل مبينة لها: أن تقوى الله حق تقواه إنما تطلب في إطار المقدور للمكلف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والتقوى لا تعني العصمة من الذنوب، والمتقون ليسوا ملائكة أطهاراً، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي

رهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم، كما قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١} [الأعراف: ٢٠١].

فإذا ذلت قدم أحدهم إلى المعصية فسرعان ما يثوب إلى رشده ويتوب إلى ربه ويقرع بابه مستغفراً، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: {وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥} [آل عمران: ١٣٥].

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى العاجلة والآجلة:

- المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد:

قال تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣].

- السهولة واليسر في كل أمر:

قال تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا} [الطلاق: ٤].

- تيسير العلم النافع:

قال تعالى: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [البقرة: ٢٨٢].

- إطلاق نور البصيرة:

قال تعالى: {إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا} [الأنفال: ٢٩].

ـ محبة الله ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى:{بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾} [آل عمران: ٧٦].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء، إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[1].

ـ نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤].

ـ البركات من السماء والأرض:

قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦].

ـ البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى:{أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ} [يونس: ٦٢ - ٦٤].

والبشرى هي الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير

---

(1) مسلم، ك البر والصلة (4/ 2030) رقم 2637.

مكان في كتابه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: **(الرؤيا الصالحة من الله)**[1].

وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل لله ويحبه الناس، فقال: **(تلك عاجل بشرى المؤمن)**[2].

ـ الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠].

ـ حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:

قال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾} [النساء: ٩].

وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافاً، إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى يحفظ أبناءهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف: ٨٢].

---

(1) البخاري، ك الرؤيا رقم 6986.

(2) مسلم، ك البر والصلة، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (2642/ 166).

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما[1].

ـ سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧].

ـ سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال الله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ} [فصلت: ١٧ - ١٨].

ـ تكفير السيئات، وهو سبب النجاة من النار وعظم الأجر هو سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا} [الطلاق: ٥].

ـ هم الورثة لجنة الله:

قال تعالى: {تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾} [مريم: ٦٣].

ـ يسيرون إلى الجنة ركباناً:

مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشقتهم.

قال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾} [ق: ٣١].

وقال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾} [مريم: ٨٥].

ـ تجمع بين المتاحبين من أهلها حين تنقلب كل صدقة ومحبة إلى

(1) محاسن التأويل للقاسمي (5/ 47).

عداوة ومشقة:

قال تعالى:{ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾} [الزخرف: ٦٧].

ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم.

قال تعالى:{ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾} [الحجر: ٤٥ - ٤٧][1].

دعوة القرآن الكريم إلى التقوى تتخذ أساليب شتى من الأمر بها، وبيان آثارها والثناء على أهلها والترغيب في محاسنهم وتجلية فضائلهم والترهيب من تركها والإعراض عنها والإنصاف بأضدادها، حتى يظهر الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى وأهل الإثم والعدوان[2]

رابعا: إقامة العدل بين الناس:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله.

قال تعالى:{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ} [الحديد: ٢٥]: أي: العدل فما من كتاب

(1) فقه النصر والتمكين صـ 209.

(2) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 82.

أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل وأوجبه عليها، والأمم بين طائع آخذ منه بنصيب وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسل ما تزال تجدد ما نسيته الأجيال، وتذكر الناس بما نسوا إلى أن ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان.

قال تعالى:{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ } [البقرة: ١٤٣]، فقد كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم، ولم يكتف الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خلقاً من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تصبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكون قائمة بالعدل بل قوامة به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريباً لقرابته ولا تضار عدواً لعداوته.

قال تعالى:{كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة: ٨].

فالعدل الذي أمر به الله عز وجل في القرآن الكريم حق لكل الناس جميع الناس، لا عدل بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه "

إنسان " فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة التي يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً، أصدقاءً وأعداءً، سوداً وبيضاً عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت أمرهم[1] فالعدل من مقاصد القرآن الكريم - وأوجبه الله على المؤمنين به ولو كان مراغمة لعواطف البغض والعداوة،{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، وهو كذلك واجب ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ } [النساء: ١٣٥].

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى، والخوف من الله عز وجل حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء بدون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء والشنآن والعداوة؛ لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله، والعدل بهذه الصورة الشاملة، لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة[2].

خامساً: الشورى:

من مقاصد القرآن الكريم تحقيق ممارسة الشورى بين الناس.

---

(1) أنظر: ظلال القرآن (2/ 414).
(2) الوسطية في القرآن الكريم للصّلابي صـ 94.

1- قال تعالى:{ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾} [الشورى: ٣٦ - ٣٨].

وهناك دلالات لطيفة لقيمة الشورى في الإسلام، في ضوء تفسير هذه الآية منها ما يلي:

فالآية وردت في سورة تحمل اسم الشورى وهي سورة الشورى وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حد ذاته تشريف لأمر الشورى وتنويه بأهميتها ومنزلتها.

وجاءت الشورى في هذه الآية وصفاً تقريرياً، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين، فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الآثام والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم ويزكون أموالهم وينفقون منها في سبيل الله(1).

وهي آية مكية مما يدل على أن الشورى في الإسلام ممارسة اجتماعية قبل أن تكون من الأحكام السلطانية، وهي تصف حال المسلمين في كل زمان ومكان، فهي ليست طارئة ولا مرحلية، ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم.

(1) الشورى في معركة البناء صـ 21 أحمد الريسوني.

وهي تجعل جميع المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي، شورى بينهم، فهي حق لهم جميعاً، إلا ما كان من شأن أهل العلم والتخصص، فإن المؤمنين يحملهم إيمانهم أن يردوا ما أشكل عليهم إلى من يعلم كيف يستنبط الأحكام من النصوص[1].

وقد انتبه عدد من العلماء إلى وقوع هذه الآية الكريمة{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، كصفة من ضمن صفات تعد من المقومات والأركان الأساسية في الدين وهو ما يعني أنها واحدة من تلك الفرائض والأركان.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} يدل على جلالة موقع المشورة لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة ويدل على أنهم مأمورون بها.

2- وقال تعالى:{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾} [آل عمران: ١٥٩].

وهذه الآية جاءت خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته داعياً وهادياً، ومرشداً ومربياً، وأميراً وقائداً، وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقاً بالناس متلطفاً معهم رحيماً لهم عفواً عنهم، متسامحاً معهم، بل مستغفراً لهم في أخطائهم، وذنوبهم، ومستشيراً لهم مراعياً لآرائهم، وهذا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بمشاورة أصحابه هو أمر لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء، بل إن العلماء والمفسرين يعتبرون أن هؤلاء مأمورون

(1) الشورى مراجعات في الفقه والسياسة د. أحمد الإمام صـ 15.

من باب أولى وأحرى، فهم الأحوج إلى هذا الأمر وبفارق كبير جداً عن رسول الله، ومن هنا عُدت هذه الآية قاعدة كبرى في الحكم والإمارة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين - وأهل التخصص في فنون العلوم - فعزله واجب وهذا ما لا خلاف فيه[1].

إن الشورى مقصد من المقاصد الإسلامية، وجزء من الشريعة الإسلامية.

سادساً: الحرية:

من مقاصد القرآن الكريم، إبطال عبودية البشر للبشر وتعميم الحرية، لكل الناس ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارع متشوف للحرية، فذلك استقراؤه من تصرفات الشريعة التي دلت على أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأب الشريعة في رعي المصالح المشتركة، وحفظ النظام العام وقف بها عن إبطال العبودية بوجه عام وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربقة العبودية، وإبطال أسباب تجدد العبودية، مع أن ذلك يخدم مقصدها، كان ذلك التوقف من أجل أن نظام المجتمعات في كل قطر قائم على نظام الرق، فكان العبيد عمال في الحقول، وخدمة في المنازل والغروس، ورعاة في الأنعام، وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، ودايات لأبنائهم، فكان الرقيق " لذلك " من أكبر الجماعات التي أقيم عليها النظام العائلي والاقتصادي "

---

(1) الشورى فريضة إسلامية للصلّابي صـ 24.

والاجتماعي " لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأساً على عقب لا نفرط عقدُ نظام المدينة انفراطاً تعسر معه عودة انتظامه، فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق من وقع في أسرها وخضع إلى قوتها وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم وبانتشار اتباعه في الأقطار، فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبل آمنت عواقب الحروب الإسلامية - وأخطر تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبيُ - لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة الإسلامية اتكالاً على الكثرة والقوة، وأمناً من وصمة الأسر والاستعباد[1]، كما قال صفوان ابن أمية في مثله: لأن تربني قريش خير من أن تربني هوازن.

وكما قال النابغة:

حذاراً على أن لا تنـــال مقـــادتي :: ولا نسوتي حتى يمـــتن حرائـــراً[2]

فنظر الإسلام إلى طريق بين مقصدي - نشر الحرية وحفظ نظام العالم - بأن سلّط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية الشيخ محمد الطاهر صـ 392.
(2) المصدر نفسه صـ 393.

لتقليلها وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق وقصره على سبب الأسر خاصة، فأبطل الاسترقاق الاختياري وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعض أبنائها، وقد كان ذلك شائعاً في الشرائع وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية بأن يحكم على الجاني ببقائه عبداً للمجني عليه، وقد حكى الكريم القرآن عن حالة مصر:{قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ} [يوسف: ٧٥].

وقال:{كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ} [يوسف: ٧٦].

وأبطل الاسترقاق في الدين الذي كان شرعاً للرومان، وكان أيضاً من شريعة سولون في اليونان من قبل، وأبطل الاسترقاق في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين، وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارة يوسف إذ وجدوه.

ثم إن الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود والذي يوجد بروافع ترفع ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف آثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكه معنتاً[1].

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحها الإسلام:

1 - جعل الإسلام تحرير الأرقاء إلى الله:{وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾} [البلد: ١٢].

(1) مقاصد الشريعة صـ393.

2 - كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين.. أو تحرير رقبة.

3 - كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع زوجته بدايته تحرير رقبة، قال الله تعالى:{وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾} [المجادلة: ٣].

4 - من أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة منها تحرير رقبة.

5 - ملك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمى " أم ولد " إذا مات سيدها قبلها صارت حرة.

6 - المكاتبة: أن يتفق العبد مع سيده على مبلغ من المال يدفعه أو يقوم بعمل يصير بعده حراً، قال تعالى:{ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ } [النور: ٣٣].

7 - العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرر واحد منهم نصيبه امتنع أن يباع العبد.

8 - تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾} [التوبة: ٦٠].

لقد انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن

طريق الكفارات كما رأينا [1].

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية بأن ترفع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنما بأسلوب أرقى وهو كلمة غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، قال صلى الله عليه وسلم: (**لا يقولون أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم ربي، وليلقل سيدي**) [2].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: (**لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه**)، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**عبيدكم خَوَلكم إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس**)[3] ونهى عن ضربهم الضرب الخارج عن الحد اللازم، فإذا مثل الرجل بعبده عتق عليه[4].

فمن استقراء هذه التصرفات ونحوها حصل لنا بأن الشريعة قاصدة بث الحرية والقضاء على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده، ترك الخيار لكافة الناس في اختيار المعتقد بعد تبين الرشد من الغي، وتترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير، وإليك الشرح:

---

(1) حقوق الإنسان في الإسلام د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري صـ107.
(2) البخاري رقم 2552، مسلم رقم 2249.
(3) مقاصد الشريعة محمد الطاهر بن عاشور صـ 395.
(4) المصدر نفسه صـ395.

1 ـ حرية الاعتقادات:

أسسها الإسلام بإبطال المعتقدات الضالة التي أكره دعاة الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها بدون فهم ولا هدى، ولا كتاب منير، وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردهم إلى الحق بالكلمة والموعظة وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين(1).

قال تعالى:{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦].

ولو أراد الخالق جلت قدرته لدخل جميع من على الأرض من الناس دين الإسلام، ولكن له حكمة في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال:{وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩} [يونس: ٩٩].

ولا شك أن الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادر على التمييز بين الحق والباطل، حتى يستطيع اختيار الطريق الصحيح، قال تعالى:{إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣} [الإنسان: ٢ - ٣].

وتتكرر الآيات القرآنية في أكثر من سورة حول حرية الاعتقاد وعدم إجبار من لم يقتنع بالإسلام على اعتناقه، فيخاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام قائلاً:{وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ} [الكهف: ٢٩].

---

(1) مقاصد الشريعة محمد الطاهر بن عاشور صـ396.

- وقال تعالى:{وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾} [الأنعام: ١٠٧].

- وقال تعالى:{ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ } [الشورى: ٤٨].

- وقال تعالى:{فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

- وقال تعالى:{مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾} [النساء: ٨٠].

والدين الإسلامي الحنيف ليس دين قمع وإكراه، بل دين يسر يقوم على مبدأ وسائل الإقناع والتزام جادة العقل من خلال منهج الحوار البناء والتعبير الحر والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن، والشريعة الإسلامية تشدد وتؤكد على قدسية هذا المنهج، لذا نجد أن الخالق يأمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يدعو الناس إلى دين الإسلام بالحكمة ويخاطبه قائلاً:{ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [النحل: ١٢٥].

- وفي مجادلة أهل الكتاب يقول مخاطباً المؤمنين، قال تعالى:{وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾}

[العنكبوت: ٤٦][1].

2 ـ حرية التعبير [الأقوال]:

فهي التصريح بالرأي والاعتقاد في منطقة الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

- وقال تعالى:{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [آل عمران: ١١٠].

- وقال تعالى:{ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [التوبة: ٧١].

وقال تعالى:{ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾} [لقمان: ١٧].

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه مما لا فائدة منه، أو مما فيه مضرة في الدين أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم، وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام، وآدابه تحديداً دقيقاً، وواضحاً نجمل شيئاً منه فيما يلي:

1 - الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾} [البقرة: ١٠٤].

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية د. صالح عبد الله الراجحي صـ111.

2 - الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه:{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾} [الأعراف: ٣٣].

3 - الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله عز وجل: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾} [الأحزاب: ٧٠].

4 - الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: { وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾} [النساء: ٨٣].

والآية الأخيرة: إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع) [1]، وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهى عن قيل وقال[2]، الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبيت، ولا تدبر، ولا تبين[3].

5 - كما حرم الله ورسوله الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب والسنة

---

(1) مسلم رقم 7 (1 / 31).
(2) مسلم رقم 4458.
(3) تفسير ابن كثير (1 / 529)، حرية التعبير محمد بن محمد الخرعان صـ45.

وإجماع الأمة[1].

3 ـ حرية الفكر:

لم يترك القرآن الكريم أسلوباً نفسيًّا أو واقعيًّا إلا واتبعه من أجل حث الإنسان على التفكير واستعمال عقله بصورة واضحة جلية، وإليك أخي القارئ الكريم البيان:

أ ـ طلب القرآن الكريم من الناس أن يستعملوا عقولهم ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات في الإيمان ورسوله:{قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ } [سبأ: ٤٦].

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول يقول تعالى:{ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾} [الأنعام: ٥٠].

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو إجتماعية، يقول تعالى:{ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾} [البقرة: ٢١٩].

وفي إشعار الإنسان بأن هذا الكون كله خلق لارتفاقه ويسر بره وبحره وعلوه وسفله له[2]، يقول تعالى:{ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾} [الجاثية: ١٣].

(1) حرية التعبير د. محمد الخرعان صـ46.
(2) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي صـ80 - 71، حقوق الإنسان د. هاني الطعيمات صـ154.

ب - طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أن هناك سبباً، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون الذي ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات وما حوته، وفي الأرض وما عليها، يقول تعالى:{ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ } [يونس: ١٠١].

وقال تعالى:{ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى } [الروم: ٨].

وقال تعالى:{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾} [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وفي النظر في أصل نشأة الإنسان وخلقه يقول تعالى:{فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾} [الطارق: ٥ - ٧].

وقال تعالى:{أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾} [يس: ٧٧].

ج - وحتى يحفز القرآن الكريم العقل الإنساني للتفكر هاجم الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلهم كالدواب، ذلك أن العقل الإنساني وملكة التفكير هي التي تميز الإنسان من الحيوان، يقول تعالى:{وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾} [الأعراف:

.[١٧٩

س ـ نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقف بوجه العقل الإنساني والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد واستقلاليته الفكرية.

قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾} [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى:{ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾} [الزخرف: ٢٢ - ٢٣].

فالمترفون عادة لا يريدون التفكير في الأسس الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية؛ لأنهم طبقة مستفيدة من الوضع القائم، فهي لا تريد حتى التفكير في وضع جديد[1].

كما نبه القرآن الكريم إلى عائق آخر ذي تأثير عملي، فقال وهو الطاعة العمياء بلا فكر لأصحاب الجاه والسلطان قال تعالى:{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾} [الأحزاب: ٦٧].

2 - واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشط العملية الفكرية، وليخلق ملكة المقارنة ويطور المقدرة

---

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية صـ 155.

على التفكير بشكل صحيح[1].

قال تعالى:{قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ} [الرعد: ١٦].

- وقال تعالى:{أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾} [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

- وأفرد القرآن الكريم مكانة خاصة للذين يفكرون ويتعمقون في التفكير ويصبح تفكيرهم علماً نافعاً للإنسان في هذه الحياة، وميزهم عن غيرهم، وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدمة من كيفية طلب التفكير وضرورته واحترام العقل الإنساني ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال سبحانه وتعالى:{يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ} [المجادلة: ١١].

وبهذا يكون المنهج القرآني وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات، وليس فيها جمود ولا تقليد وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني وتحريره من ربقة البلادة والخمول وتنبيهه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير[2].

ولقد ظهرت حرية العلم والتعليم والتأليف والتفكير في أجمل مظهر في القرون الثلاث الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماء فتاواهم

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية صـ155.
(2) المصدر نفسه صـ156.

ومذاهبهم وعلمهم واحتج كل فريق لرأيه، ولم يكن ذلك موجباً للمناوءة ولا لحزازات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نضَّر الله امرء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه إلى ما هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى ما ليس بفقيه)[1].

وهذا هو المقام الذي تحقق فيه مالك بن أنس حين قال له أبو جعفر الخليفة: إني عزمت أن أكتب كتابك " يعني الموطأ " نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها.

فقال الإمام: لا تفعل يا أمير، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم وأن ردهم عن ذلك شديد، فدع الناس وما هم عليه[2].

4 ـ حرية التنقل:

كفل الإسلام حرية التنقل لكل فرد حسبما يريد سواء كان ذلك داخل حدود الدولة الإسلامية أم سفر إلى خارجها، ويمكن إجمال صور التنقل فيما يلي:

أ – التنقل لتحقيق نفع ديني ودنيوي:

وذلك مثل التنقل طلباً للرزق بالطرق المشروعة، من تجارة وغيرها، قال الله تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا

---

(1) مقاصد الشريعة محمد الطاهر بن عاشور صـ397.

(2) المصدر نفسه صـ397.

وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾} [الملك: ١٥].

ومن مثل التنقل طلباً للعلم، قال تعالى:{فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢].

ومن مثل السفر بقصد زيارة الأرحام والأخوان في الله، وبقصد زيارة البقاع الشريفة كمكة والمدينة، ومن مثل السفر بقصد الترويح عن النفس وعن الوجه المشروع، فالسياحة مباحة؛ لأنها تفتح العين والقلب على المشاهدة الجديدة التي لم تألفها العين، ولا يملها القلب، بل قد تكون السياحة مندوباً إليها، إذا كانت على سبيل التدبر والاعتبار، ومعرفة سنن الله تعالى في الأمم السالفة، قال الله تعالى: {قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾} [الأنعام: ١١].

ب - التنقل لأداء واجب ديني:

كالسفر لأداء فريضة الحج أو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: {وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾} [الحج: ٢٧].

وقال تعالى:{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾} [التوبة: ٤١].

وهذا خطاب للمؤمنين، وعقب ذلك أنزل الله تعالى في شأن المنافقين قوله:{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾} [التوبة: ٤٢].

أي: لو كان ما دعوتهم إليه من الخروج في سبيل الله سفراً وسطاً، ومتاعاً من الدنيا سهل المأخذ، لاتبعوك وخرجوا معك طلباً للغنيمة[1].

جـ - الهجرة حفاظاً على سلامة العقيدة:

أوجب الإسلام الهجرة على كل مسلم تعرض للذل أو المهانة أو خاف أن يفتن في دينه، ووصف الذين يتقاعسون عن الهجرة مع استطاعتهم لها بأنهم من الظالمين لأنفسهم، ولم يستثن من ذلك إلا الفئة العاجزة فعلاً عن الهجرة من كبار السن والنساء والولدان، وقد قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٧ - ٩٨][2].

إن الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدرها حق قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو حرية التعبير، أو حرية الفكر، أو حرية التنقل، وجعل الحرية مقصد من مقاصده.

سابعاً: رفع الحرج:

إن من مقاصد القرآن الكريم رفع الحرج عن المكلفين، ووردت آيات كثيرة جدًّا تبين أن هذا الدين دين يسر، وأن الله قد رفع الحرج عن

(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية صـ140.
(2) المصدر نفسه صـ140.

هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلفها إلا وسعها، وسأبين أدلة التيسير، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلة عدم التكليف بغير الوسع والطاقة.

1 ـ أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى:{يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

وقال سبحانه:{يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾} [النساء: ٢٨].

وقال عز وجل:{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾} [الأعلى: ٨].

وقال تعالى:{فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾} [الشرح: ٥ - ٦].

وقال تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا} [الطلاق: ٤].

وقال تعالى:{سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: ٧].

هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة.

وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم في هذه الآيات أن الله أراد لهذه الأمة اليسر ولم يرد لها العسر[1].

2 ـ أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج وله تعالى:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم

(1) تفسير الطبري (2 / 156)، تفسير ابن كثير (1 / 217).

بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[1].

وقال سبحانه:{مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٦].

وفي سورة التوبة:{ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ} [التوبة: ٩١].

وقال تعالى في سورة الأحزاب:{ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ} [الأحزاب: ٣٨].

وقال تعالى:{لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ} [النور: ٦١].

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة، ولكننا نجد التعليل عاماً، فكأن التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[2].

3 ـ أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه:{لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦].

(1) تفسير الطبري (17 / 207).
(2) الوسطية في ضوء القرآن د. ناصر العمر صـ106.

وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: (قد فعلت) [1].

وكــذلك قولـــه:{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا} [البقرة: ٢٨٦].

والوسع: ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، قال تعالى:{لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} أي: لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه أو يحرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات، وصيام أكثر من شهر، ولكن الله جلت قدرته ووسعت رحمته أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر [2].

ومــن الأدلــة علــى أن التكليــف بحــدود الوســع والطاقــة قولــه تعــالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾} [الأعراف: ٤٢].

ويقول سبحانه في سورة المؤمنون:{وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [المؤمنون: ٦٢].

فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النصوص إلى وسعها، وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية، فقال سبحانه:{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: ٢٣٣].

وكـذلك فــي ســورة الطــلاق:{لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ

(1) مسلم، ك الإيمان رقم 126 (1 / 116).
(2) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد صـ73.

فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا} [الطلاق: ٧].

وكذلك أيضاً في سورة الأنعام:{وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢].

هذه هي الآيات التي وردت مبينة أن التكليف بحسب الوسع والطاقة، وتبين أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم.

ثامناً: تقرير كرامة الإنسان:

يظهر التكريم الإلهي للإنسان في عدة أمور، منها:

1 ـ الإنسان خليفة الله في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾} [البقرة: ٣٠].

2 ـ الإنسان محور الرسالات السماوية:

إن الإنسان هو المقصود غاية وهدفاً في ابتعاث الرسل واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصُّحف، وإن الله سبحانه وتعالى الذي جعل آدم خليفة في الأرض، اقتضت حكمته، ومشيئته، ورحمته بالإنسان إلا يخلقه عبثاً، وألا يتركه سدى، وأنما تكفل بهدايته وإرشاده، وأخذ

بيده إلى الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل، وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان ولن يتركه نهباً للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم[1].قال تعالى: {قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾} [البقرة: ٣٨].

وقال تعالى:{ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ } [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

وهكذا توالت الرسل وتتابع الأنبياء، وأنزلت الكتب، وكلها تدور على محور واحد، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمين مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودفع المضار عنهم، فترشدهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشف لهم طريق الخير، وتحذرهم من الغوايا والشر[2].

وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها[3].

(1) حقوق الإنسان د. محمد الزحيلي صـ21.
(2) حقوق الإنسان للزحيلي صـ22.
(3) مجموع الفتاوى (20 / 48).

إن الأحكام الشرعية، إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد[1].

3 ـ تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي باختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملأ الأعلى بإرادته عن خلق آدم، واتخاذه خليفة وسجل ذلك في اللوح المحفوظ وأنزله وحياً يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً واحتراماً له؛ لأن الإرادة والإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾} [ص: ٧١ - ٧٤].

وقال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾} [الحجر: ٢٨ - ٣١].

وكرر القرآن الكريم هذا الأمر، وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير الإنسان بفضل الله تعالى أولاً، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانياً وليحذره من غواية إبليس ثالثاً[2].

---

(1) الموافقات للشاطبي (1 / 195).
(2) حقوق الإنسان للزحيلي صـ 28.

4. تفضيل الإنسان عن سائر المخلوقات:

صرّح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾} [الإسراء: ٧٠].

5. تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى:{أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: ٢٠].

وصرّح القرآن الكريم بأن الله تعالى خلق الأنعام، وملكها للإنسان، ثم ذللها له للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾} [يس: ٧١ - ٧٣].

ووجه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خوّاصه وأسراره، والانتفاع به في الحياة، فقال تعالى عن الثروة المائية: {وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [النحل: ١٤].

وقال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾} [الأنعام: ١٤١].

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية:{وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)} [النحل: ٥ - ٨].

وقال تعالى عن الثروة الصناعية:{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى:{وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)} [سبأ: ١٠ - ١١].

6 ـ تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرع عنه التفكير، والإرادة والاختيار، وكسب العلوم، لذلك كان الإنسان مسؤولاً عما يصدر عنه، قال تعالى:{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)} [الإسراء: ٣٦].

وعدّ القرآن الكريم الإنسان الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان، لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطلها عما خلقت له.

قال تعالى:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)} [الأنفال: ٢٢].

وقد تعددت الآيات القرآنية صراحة وإشارة في مخاطبة العقل ودعوته

للتفكير، والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية.

قال تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وقال تعالى:{ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم: ٢٤].

وقال تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾} [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى:{ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾} [الرعد: ٤].

وآيات كثيرة تثير العقل، وتحثه، وتؤدى بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنه الخالق المدبر، وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنهم لا يعقلون وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات الكون التي تنطق بوجود الله تعالى، وتوجب طاعته، وعندئذ ينسلخ الكافر من

إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه[1].

قال تعالى:{أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

7ـ تكريم الإنسان بالأخلاق والفضائل:

تظهر كرامة الإنسان والدعوة إلى تكريمه بدعوة الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، وترغيب الفرد والمجتمع بمعالي الأمور والتسامي عن المادة، والحض على الخير والفضيلة بين الناس[2]، لذلك وصف القرآن الكريم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأعلى أوسمة الفخار والثناء، فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤].

وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[3].

فدعا الإسلام الناس جميعاً إلى البر والرحمة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والوفاق، والصدق، والإحسان ووفاء الوعد، وأداء الأمانة وتطهير القلب، وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والمسامحة والعفو، والمغفرة والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث على النصيحة وغير ذلك من

(1) حقوق الإنسان في الإسلام للزحيلي صـ 54.
(2) المصدر نفسه صـ 64.
(3) سنن البيهقي (10/ 192)، البخاري، ك الأدب الموطأ صـ 564.

مكارم الأخلاق والفضائل[1]، والأخلاق الفاضلة تزين الإنسانية وتُعلي شأنها، وتُنسق بين أفرادها وتصون العلاقات الجماعية، وتوجيهها إلى الخير والكمال، لتصور الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنب الرذيلة، والفساد الخُلُقي والاجتماعي[2].

8- تكريم الإنسان في تشريع الأحكام:

وهذا باب واسع يُغطي جميع الأحكام الشرعية، ويدفع لمعرفة العلة فيها والحكمة من تشريعها، ولذلك نضرب بعض الأمثلة فقط كنماذج:

أ- وجود الإنسان:

قال تعالى:{ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الروم: ٢١].

{مِّنْ أَنفُسِكُمْ} أي: جنسكم{لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} أي: تأنسوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضامن والتعاون{وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً} أي: توادّاً وتراحماً بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة[3].

(1) حقوق الإنسان للزحيلي صـ 64.
(2) المصدر نفسه صـ 66.
(3) محاسن التأويل للقاسمي (13/ 4772).

ب ـ حقوق الأولاد:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ} [التحريم: ٦].

أمر الله عز وجل في هذه الآية: بأن يقي المؤمنون أنفسهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد وهذا يتطلب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي ومراقبتهم المستمرة في ذلك[1].

ج ـ احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

ومن ذلك إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبيّن الحكمة والغاية من ذلك:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا} [البقرة: ٢٨٢].

ثم قال تعالى:{وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ} [البقرة: ٢٨٢].

ثم بين تعالى الحكمة والغاية، فقال:{ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا} [البقرة: ٢٨٢].

---

(1) التفسير المنير للزحيلي (28/ 316 - 320).

كما أن الله حرّم الغشّ والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب حقوقهم؛ لأن ذلك يخل بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى:{وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾} [البقرة: ١٨٨].

وقال تعالى:{لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ} [النساء: ٢٩].

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساساً في التعاقد، والتعامل حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)**[1]، وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان، والإكراه، لأن الإرادة مفقودة حقيقة في هذه الحالات، كما حرّم الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه[2].

س ـ العقوبات:

قال تعالى:{ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة: ١٧٩].

لقد حرص المشرّعُ الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصد حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعي

---

(1) حقوق الإنسان صـ 72.

(2) الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الكبير للسيوطي نقلاً عن حقوق الإنسان صـ 72.

الكرامة الإنسانية، فنصّ على الأشياء الممنوعة والمحرمة، وحذر منها ورهب من ارتكابها، فإن حصل الخلل، ووقع الخطأ، أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسب للجريمة بما لا يمس كرامة الإنسان فشرع القصاص ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديباً، وإصلاحاً وزجراً وردعاً[1].

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلة كثيرة في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته، والتحقيق معه، أم في محاكمته وتأمين حقوقه الإنسانية ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه أم في معاقبته وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره[2].

وبعد:

فإن جميع الأحكام الشرعية مُراعى فيها الناحية الإنسانية، لأنها ما شرعت أصلاً إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغراء راعت إنسانية الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، وموراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت أو إيذائه بكلمة، أو غيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من معنى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام، كما يتجلى لنا التكريم الإلهي

---

(1) ذكره الهيثمي في " مجمع الزوائد " (250/6) وفيه يزيد بن ربيعة الرحبيي وهو ضعيف.

(2) المصدر نفسه صـ 74.

للإنسان في كل صغيرة وكبيرة وفي جميع شؤون الحياة وأطوار الإنسان، ليكون المكرَّم، والمفضَّل، والمقدَّم عند الله، والخليفة في الأرض[1].

تاسعاً: تقرير حقوق الإنسان:

من مقاصد القرآن الكريم تقرير حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم أو قرار صادر عن سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل ولا يسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها[2]، ومن هذه الحقوق:

1 ـ حق الحياة:

حياة الإنسان مقدسة لا يجوز لأحد أن يعتدي عليها، قال تعالى: {مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا} [المائدة: ٣٢].

ولا تسلب هذه القدسية إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها، وكيان الإنسان المادي والمعنوي حمى، تحميه الشريعة في حياته، وبعد مماته ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه[3].

(1) المصدر نفسه صـ78.
(2) حقوق الإنسان رواية أحمد صـ174.
(3) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام محمد الغزالي صـ174.

2 ـ حق الحرية:

حرية الإنسان مقدسة ـ كحياته سواء ـ وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان وقد بينا أن من مقاصد الشريعة الحرية، وتحدثنا عن أنواعها، كحرية المعتقدات، وحرية التعبير، وحرية الفكر، وحرية التنقل.

ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرها، ولا يجوز لشعب أن يعتدي على حرية شعب آخر، وللشعب المعتدي عليه أن يرد العدوان ويسترد حريته بكل السبل الممكنة، قال تعالى: { وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ } [الشورى: ٤١].

وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته ويتحمل المسلمون في هذا واجباً ولا ترخص فيه، قال تعالى:{ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ } [الحج: ٤١].

3 ـ حق المساواة:

قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ } [الحجرات: ١٣].

ـ الناس جميعاً سواسية أمام الشريعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على

أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)[1]، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [2].

- الناس كلهم في القيمة الإنسانية سواء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم لآدم وآدم من تراب)[3]، وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى:{وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} [الأحقاف: ١٩].

وكل فكر وكل تشريع، وكل وضع يسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام[4].

- لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى:{فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ} [الملك: ١٥]، ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كماً وكيفاً، قال تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨} [الزلزلة: ٧ - ٨].

4 - حق العدالة:

- من حق كل فرد أن يتحاكم إلى الشريعة وأن يتحاكم إليها دون سواها، قال تعالى:{فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [النساء: ٥٩].

(1) مسند الإمام أحمد (5 / 411).
(2) مسلم، ك الحدود (3 / 1315).
(3) من خطبة حجة الوداع، حقوق الإنسان للغزالي صـ175.
(4) حقوق الإنسان للغزالي صـ175.

وقال تعالى:{ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ } [المائدة: ٤٩].

- ومن الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم، قال تعالى:{لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ} [النساء: ١٤٨]، ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك.

- ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتنصفه وتدفع عنه، ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها[1].

قال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨} [النساء: ٥٨].

وقال تعالى:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦} [ص: ٢٦].

5 ـ حق الفرد في محاكمة عادلة:

البراءة هي الأصل، وهو مستصحب ومستمر حتى مع اتهام الشخص ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية، ولا تجريم إلا بنص، قال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا} [الإسراء: ١٥].

ولا يحكم بتجريم شخص، ولا يعاقب على جرم إلا بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة، قال تعالى:{إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ } [الحجرات: ٦]، وقال تعالى:{إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا

(1) حقوق الإنسان للغزالي صـ175.

يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [يونس: ٣٦].

ولا يجوز - بحال - تجاوز العقوبة التي قدرتها الشريعة للجريمة، قال تعالى:{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: ٢٢٩].

ولا يؤخذ إنسان بجريرة غيره، قال تعالى:{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الإسراء: ١٥]، وكل إنسان مستقل بمسؤوليته عن أفعاله، قال تعالى:{كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١].

ولا يجوز بحال أن تمتد المسألة إلى ذويه من أهل وأقارب أو أتباع وأصدقاء، قال تعالى:{مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ} [يوسف: ٧٩][1].

6 ـ حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فرد الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه، ولا توجيه اتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه، قال تعالى:{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾} [الأحزاب: ٥٨].

7 ـ حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} [الحجرات: ١١].

---

(1) المصدر نفسه صـ176.

عرض الفرد وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) [1].

ويحرم تتبع عوراته ومحاولة النيل من شخصيته وكيانه الأدبي.

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾} [الحجرات: ١٢].

8 ـ حق اللجوء:

من حق كل مسلم مضطهد أو مظلوم أن يلجأ إلى حيث يأمن، في نطاق دار الإسلام وهو حق يكفله الإسلام لكل مضطهد، أيا كانت جنسيته أو عقيدته، أو لونه ويحمل المسلمين واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم.

قال تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ} [التوبة: ٦].

وبيت الله الحرام ـ بمكة المشرفة ـ هو مثابة وأمن للناس جميعاً لا يصد عنه مسلم، قال تعالى:{وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا} [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى:{وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا} [البقرة: ١٢٥][2].

---

(1) صحيح مسلم، رقم 889.

(2) حقوق الإنسان محمد الغزالي صـ177.

9 ـ حقوق الأقليات:

الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام، قال تعالى:{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦].

والأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات، تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا، قال تعالى:{فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ} [المائدة: ٤٢]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي - عندهم - لأصل إلهي:{ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ} [المائدة: ٤٣].

وقال تعالى:{ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ} [المائدة: ٤٧].

10 ـ حق المشاركة في الحياة العامة:

من حق كل فرد في الأمة أن يعلم بما يجري في حياتها، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة وعليه أن يسهم فيها بقدر ما تتبع له قدرته ومواهبه إعمالاً لمبدأ الشورى، قال تعالى:{وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ} [الشورى: ٣٨]، وكل فرد في الأمة أهل لتولي المناصب، والوظائف العامة، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية، ولا تسقط هذه الأهلية أو تنقص تحت أي اعتبار عنصري أو طبقي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم**) [1].

---

(1) صحيح سنن أبي داود، الألباني (2، 525).

والشورى أساس العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكامها بإرادتها الحرة، تطبيقاً لهذا المبدأ، ولها الحق في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا عن الشريعة، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم(1).

11 ـ حق الدعوة والبلاغ:

لكل فرد الحق أن يشارك مع غيره أو منفرداً في حياة المجتمع: دينيًّا واجتماعيًّا، وثقافيًّا وسياسيًّا... إلخ وأن ينشئ من المؤسسات، ويصنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى: {قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى} [يوسف: ١٠٨].

من الحق لكل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاوناً على البر والتقوى، قال تعالى:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ} [آل عمران: ١٠٤](2)، وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح، قرره القرآن بقوله:{وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾} [هود: ١١٣].

(1) التاريخ الإسلامي عبد العزيز الحميدي (9 / 28) الشورى فريضة إسلامية للصلابي صـ56.
(2) حقوق الإنسان للغزالي صـ179.

- قال تعالى:{ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾} [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، كيف لا وقد قيد الله الطاعة للرسول نفسه بالمعروف، فقال في بيعة النساء:{وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ} [الممتحنة: ١٢]. وقال على لسان نبي الله صالح:{ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾} [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

بل إن الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات، لأن ما كان من الحقوق يمكن لصاحبه أن يتنازل عنه، أما الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازل عنها(1).

12 ـ الحقوق الاقتصادية:

الطبيعة - بثرواتها جميعاً - ملك لله تعالى:{لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾} [المائدة: ١٢٠]، وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها، قال تعالى:{ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [الجاثية: ١٣].

وحرم عليهم إفسادها وتدميرها، قال تعالى:{وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨٣].

ولا يجوز لأحد أن يجرم آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق:{وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء:

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ74.

.[٢٠

فلكل إنسان الحق في العمل والمشي في مناكب الأرض سعياً لكسب رزقه، قال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾} [الملك: ١٥].

حتى في يوم الجمعة قال تعالى:{ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ } [الجمعة: ١٠].

وفي الحج قال تعالى:{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ } [البقرة: ١٩٨].

ولكل إنسان الحق في أن يتمتع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك، رجلاً كان أو امرأة:{لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ} [النساء: ٣٢][1].

13 ـ حق حماية الملكية:

لا يجوز انتزاع ملكية، نشأت عن كسب حلال، إلا للمصلحة العامة قال تعالى:{ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ } [البقرة: ١٨٨].

ومع تعويض عادل لصاحبها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين)**[2]. وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشد؛ لأنه عدوان على المجتمع كله وخيانة للأمة بأسرها، قال رسول

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ72.
(2) صحيح البخاري، ك المظالم (2 / 115).

الله صلى الله عليه وسلم: (من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً، فما أخذ بعد ذلك فهو غلو له) [1].

14 ـ حق العامل:

العمل: شعار رفعه الإسلام لمجتمعه، قال تعالى:{وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ} [التوبة: ١٠٥].

وإذا كان حق العمل الإتقان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) [2].

فأن حق العامل:

- أن يوفي أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) [3].
- أن توفر له حياة كريمة تناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.
- أن يمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له، قال تعالى:{وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥].
- أن يجد الحماية، التي تحول دون غبنه واستغلال ظروفه[4].

(1) صحيح سنن أبي داود (2 / 230).
(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني رقم 1880.
(3) صحيح سنن ابن ماجة للألباني (2 / 59).
(4) حقوق الإنسان للغزالي صـ181.

15 ـ حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة، من طعام وشراب، وملبس ومسكن.. ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله من علم ومعرفة وثقافة في نطاق ما تسمع به موارد الأمة ويمتد واجب الأمة ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل هو بتوفيره لنفسه من ذلك(1).

قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله) (2).

قال ابن حزم تعليقاً على هذا الحديث: من تركه يجوع ويعري وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه(3). إن الأخوة ليست مجرد عاطفة، ولكنها عقد تكافل وتعاون وتآزر وهو عقد طرفه الأساسي الأمة ممثلة في مستويات متراتبة تبدأ بالأسرة حيث أوجب على أفرادها التكافل في الإرث والوصية والنفقة، قال تعالى:{وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ} [الأنفال: ٧٥].

ثم الجيرة: قال تعالى:{وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ} [النساء: ٣٦]، ثم يأتي أهل الحي، ثم المجتمع كله عن طريق الزكاة وهي فريضة ملزمة ثم النفقة التطوعية(4).

(1) المصدر نفسه صـ182.
(2) البخاري (1 / 250) ورواه مسلم.
(3) المحلي نقلاً عن الحريات للعنوشي (1 / 108).
(4) الحريات في الدولة الإسلامية (1 / 109).

16 ـ تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن الكريم حقوق الإنسان عامة، ولكنه عُني عناية فائقة بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة خفية أن يجور عليهم الأقوياء، أو يهمل أمرهم الحكام والمسئولون، نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن الكريم مكية ومدنية، كقوله تعالى:{فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾} [الضحى: ٩]، وفي سورة المدثر يتحدث عن المجرمين في سقر، وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم:{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾} [المدثر: ٤٢ - ٤٤]، وهاتان السورتان الضحى والمدثر - من أوائل ما نزل وفي سورة الماعون:{أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾} [الماعون: ١ - ٣].

فلم يكتف بإيجاب إطعام المسكين، بل أوجب الحض على ذلك والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة، علل القرآن الكريم دخول صاحب الشمال الجحيم بقوله تعالى:{إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾} [الحاقة: ٣٣ - ٣٤]، فقرن الحض على الإيمان أو قرن ترك الحض بالكفر بالله تعالى، وفي سورة الفجر خاطب القرآن الكريم المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله:{كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾} [الفجر: ١٧ - ١٨].

وأمر بالمحافظة على مال اليتيم - إن كان له مالـ إذ جعل ذلك من

وصاياه العشر في سورة الأنعام:{وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ} [الأنعام: ١٥٢]، وكرر هذه الوصية في (الإسراء، آية: 34).

وفي سورة النساء وضع القواعد للمحافظة على مال اليتيم وحسن استغلاله وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيد شديد قال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾} [النساء: ١٠][1].

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظًّا في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة.

قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} [التوبة: ٦٠].

وقال تعالى:{مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ} [الحشر: ٧].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة؛ لأن الله أمر ولي الأمر بأخذها، فقال:{خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا} [التوبة: ١٠٣].

فإذا لم تتول الدولة أخذها، كان على أرباب الأموال أداؤها إلى الفقراء يبحثون هم عن الفقراء ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقاً في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك، قال تعالى: {لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ75.

وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ} [البقرة: ١٧٧].

قال تعالى:{ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ} [الإسراء: ٢٦].

وقـــال تعـــالى:{ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ} [البقرة: ٢١٥].

وأهم من ذلك كله: أن القرآن شرع القتال وسل السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرض أبلغ التحريض على القتال ذوداً عن حرماتهم، ودرءاً للظلم عنهم، قال تعالى:{فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾} [النساء: ٧٤ - ٧٥].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن الكريم للإنسان ولا نقول: أعلنها؛ إذ كان الأمر أكبر من إعلان، إنه بلاغ من رب الناس للناس، أسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبنى عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به حضارة وتاريخ(1).

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 76.

عاشراً: تكوين الأسرة الصالحة:

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن الكريم، تكوين الأسرة الصالحة، التي هي ركيزة المجتمع الصالح، ونواة الأمة الصالحة[1].

ولا ريب أن أساس تكوين الأسرة هو الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيق العُرى، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان وقد اعتبر القرآن الكريم هذا الزواج آية من آيات الله، مثل خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من تراب وذلك في قوله تعالى: { وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ } [الروم: ٢١].

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن الكريم، وهي السكون، والمودة، والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله، فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة، منذ الأسرة البشرية الأولى من آدم وزوجه{ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ } [البقرة: ٣٥].

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة " 1994م " ومؤتمر المرأة في بكين

---

(1) المصدر نفسه صـ 86.

أن يفرضاه على العالم[1].

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة " الرهبانية " المنافية للفطرة، التي تحرم الزواج، وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة، ولو كانت أختاً أو أماً، لأنها أحبولة الشيطان.

وثانيها: نزعة " الإباحية " التي تطلق العنان للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية، ونبوة بارّة، وأخوة عاطفة وتتربى في ظلها مشاعر المحبة وعواطف الإيثار والتعاون[2].

استهدف الشارع عدة مقاصد من تكوين الأسرة منها:

1. **حفظ النسل:**

وتحقيقاً لهذا المقصد قصر الإسلام الزواج المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى وحرّم كل صور اللقاء خارج الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعمير للأرض وتواصل للأجيال، قال الله جل شأنه: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١][3].

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 86.

(2) المصدر نفسه صـ 87.

(3) ميثاق الإسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل صـ 132.

وقال تعالى:{ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً } [النحل: ٧٢].

وكان من دعاء عباد الرحمن{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: ٧٤].

وقال الخليل إبراهيم{رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ} [الصافات: ١٠٠ - ١٠١].

وقال زكريا عليه السلام:{فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾} [مريم: ٥ - ٦].

فجاء الجواب الإلهي:{ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾} [مريم: ٧].

2 ـ تحقيق السكن والمود والرحمة:

وشرعت أحكاماً وآداب بالمعاشرة بالمعروف بين الزوجين حتى لا تنحصر العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى:{وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ } [النساء: ١٩]؟

والمعروف هنا ما يقره العرف السليم، واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى:{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } [البقرة: ١٨٧]، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس، لما توحي به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدفء، قال تعالى:{فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ } [آل عمران: ١٩٥]. ومعنى:{بَعْضُكُم مِّن

بَعْضٍ}: إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، فلا خصومة ولا تناقض، بل تكامل وتناسق وتعاون[1].

3 ـ حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظام التبني، وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال الله جل شأنه:{ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾} [الأحزاب: ٤ - ٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أيما رجل دعا إلى غير والديه، أو تولى غير مواليه الذين أعتقوه، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف[2] ولا عدل)**[3].

ولأجل حفظ النسب حرم الإسلام أيضاً الزنى، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده، وهي أحكام لها تفصيلها في مظانها من المراجع الفقهية[4].

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام صـ135.
(2) الصرف: الفريضة أو النافلة، وقيل التوبة.
(3) العدل: التوبة أو الفدية، حديث صحيح، رواه أحمد والدارمي.
(4) ميثاق الأسرة في الإسلام صـ137.

4 ـ الإحصان:

يوفر الزواج الشرعي صون العفاف، ويحقق الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسد ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال[1]، وقد اختص الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها والارتقاء بها لا كبتها وقمعها، قال الله جل شأنه: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ } [آل عمران: ١٤]، وهي شهوات مستحبة مستلذة لكنها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى[2].

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه:{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ} [البقرة: ٢٢٣]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث وفي غير موضع الأذي وزمانه، قال تعالى:{ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ } [البقرة: ٢٢٢][3].

(1) المصدر نفسه صـ137.
(2) ميثاق الأسرة في الإسلام صـ138.
(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ87.

5 ـ حفظ التدين في الأسرة:

الأسرة هي محضن الأفراد، ولا برعاية أجسادهم فقط، بل الأهم غرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسؤولية الأسرة في هذا المجال قبل تكون الجنين بحسن اختيار كل من الزوجين إلى الآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار[1].

قال تعالى:{وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾} [البقرة: ٢٢١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه زوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)** [2].

وتستمر مسؤولية الأسرة بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم[3].

قال تعالى:{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾} [طه: ١٣٢].

وقال جل شأنه عن النبي إسماعيل عليه السلام:{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ

---

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام صـ138.

(2) حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجة، والحاكم والبيهقي، ميثاق الأسرة في الإسلام صـ154.

(3) ميثاق الأسرة في الإسلام صـ138.

وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾} [مريم: ٥٥].

وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ} [التحريم: ٦].

الحادي عشر: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرم القرآن الكريم المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً وكرمها بوصفها أنثى، وكرمها بوصفها بنتاً، وكرمها بوصفها زوجة، وكرمها أماً، وكرمها بوصفها عضواً في المجتمع[1].

لقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل، فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة، وأكد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف، والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنساناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنسانية؛ لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكاليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير[2]، وفي ذلك يقول القرآن

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ89.

(2) ملامح المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي صـ321.

الكـريم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾} [النساء: ١].

وإذا كان الناس - كل النـاس - رجـالاً ونسـاءً، خلقهم ربهم من نفس واحدة وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها وتكتمل بهـا، كمـا قـال فـي آيـة أخـرى: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩]، وبـث فـي هذه الأسـرة الواحـدة رجـالاً كثيـراً ونسـاءً، كلهـم عبـاد لـرب واحـد، وأولاد لأب واحـد وأم واحـدة، فـالأخوة تجمعهم. ولهـذا أمـرت الآيـة الناس بتقوى الله، ورعايـة الـرحم الواشـجة بينهم: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

والرجل - بهذا النص - أخو المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما النساء شقائق الرجال) [1].

1 - في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة:

يقـول القـرآن الكريـم: {إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾} [الأحزاب: ٣٥].

(1) صحيح الجامع الصغير 2333 رواه أحمد وأبو داود، والترمذي عن عائشة.

2 ـ في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية:

يسوِّي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى:{ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ } [التوبة: ٧١].

3 ـ وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي:

إليه وإلى زوجه سواء، قال تعالى:{يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ } [البقرة: ٣٥].

والجديد في هذه القصة ـ كما ذكرها القرآن ـ أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء ـ كما فعلت التوراة المحرفة:{فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } [البقرة: ٣٦].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة، ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندم والتوبة منهما جميعاً:{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣].

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: {وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾} [طه: ١١٥]، { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾} [طه: ١٢٠].

وقال تعالى:{وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ} [طه: ١٢١].

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً:{ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ } [طه: ١٢٢]، مما يفيد أنه الأصل في المعصية وامرأته تبع له.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى:{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)} [البقرة: ١٣٤].

4 ـ وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء:

ودخول الجنة يقول الله تعالى:{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } [آل عمران: ١٩٥]، فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)} [النحل: ٩٧].

- وقال تعالى:{ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)} [النساء: ١٢٤].

5 ـ وفي الحقوق المالية للمرأة:

أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عرباً وعجماً - من حرمات النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق التملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة، والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال ويتبع ذلك حقوق

الدفاع عن مالها، كالدفاع عن نفسها - بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة[1].

6 ـ المرأة باعتبارها أماً:

لا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرَّم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكد الوصية بها وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته، وجعل برها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب لما تحملته من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن ويكرره في أكثر من سورة ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم وذلك في مثل قوله تعالى:{ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾} [لقمان: ١٤]، وقال تعالى:{وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥][2].

ومن توجيهات القرآن الكريم: أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهات صالحات، كان لهن أثر ومكان في تاريخ الإيمان.

ـ فأم موسى تستجيب إلى وحي الله وإلهامه، وتلقي ولدها وفلذة كبدها في اليمّ، مطمئنة إلى وعد ربها قال تعالى:{ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾} [القصص: ٧].

---

(1) ملامح المجتمع المسلم د. القرضاوي صـ 324.

(2) ملامح المجتمع المسلم ص328.

ـ وأم مريم التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصاً من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرها قال تعالى:{فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [آل عمران: ٣٥].

ـ فلما كان المولد أنثى على غير ما كانت تتوقع لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء قال تعالى:{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٦].

ـ ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن آية في الطهر والقنوت لله والتصديق بكلماته:{وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ} [التحريم: ١٢][1].

7ـ المرأة باعتبارها بنتا:

كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويضيقون به، حتى قال أحد الآباء ـ وقد بشر بأن زوجه ولدت أنثى: والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصراخ والبكاء، لا بالقتال والسلاح، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يئد ابنته ـ يدفنها حية ـ خشية من فقر قد يقع، أو من عار قد تجلبه حين تكبر على قومها وفي ذلك يقول القرآن الكريم منكراً عليهم ومقرعاً لهم:{وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ

(1) المصدر نفسه ص 331.

سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾} [التكوير: ٨ - ٩].

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات، قال تعالى:{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾} [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطى الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء وبعضها الآخر - كشريعة حمورابي - تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها.

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن - هبة من الله ونعمة - يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى:{يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وبين القرآن الكريم في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثراً وأخلد ذكراً، من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين[1]، قال تعالى:{ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا } [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

(1) ملامح المجتمع المسلم صـ332 - 333.

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته، ويبر على تربيتهن وحسن تأديبهن، ورعاية حق الله فيهن، حتى يبلغن، أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجواره - صلى الله عليه وسلم - في دار النعيم المقيم، قال صلى الله عليه وسلم :(**من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن، أدخله الله الجنة برحمته إياهن**)، فقال رجل واثنتان يا رسول الله؟ قال: (**واثنتان**). قال رجل: يا رسول الله، وواحدة، قال: (**وواحدة**)[1].

لم تعد ولادة البنت عبئاً يُخاف منه، وطالع نحس يُتطير به، بل نعمة تُشكر ورحمة تُرجى وتُطلب، لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد، وأصبح للبنت في قلب أبيها مكان عميق[2].

8 ـ المرأة باعتبارها زوجة:

كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبر المرأة رجساً من عمل الشيطان يجب الفرار منه، واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرد آلة متاع للرجل، أو طاهٍ لطعامه أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلن بطلان الرهبانية، وينهي عن التبتل، ويحث على الزواج، ويعتبر الزوجية آية من آيات الله في الكون، قال تعالى:{ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم: ٢١].

---

(1) رواه الحاكم وصحح اسناده ووافقه الذهبي (4 / 176).
(2) ملامح المجتمع المسلم صـ334.

وقرر الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلها مجرد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثر من حافظ ورقيب، من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثاً.

وأول هذه الحقوق الصداق: الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها وإرادته لها قال تعالى:{وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾} [النساء: ٤].

فأين هذا من المرأة التي نجدها في مدنيات أخرى، فدفع هي للرجل بعض مالها، مع أن فطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق: هو " النفقة " فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بالمعروف والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: {لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا} [الطلاق: ٧].

وثالث الحقوق: هو " المعاشرة بالمعروف " قال تعالى:{وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ} [النساء: ١٩].

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب نفسها بالممازحة والترفيه عنها.

وفي مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج - في غير معصية طبعاً - والمحافظة على ماله، فلا تنفق منه إلا بإذنه وعلى بيته، فلا

تدخل فيه أحداً إلا برضاه ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرة ولا ظالمة في مقابل ما على الرجل من حقوق فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى:{وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨].

فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات، ومن جميل ما يروى أن ابن عباس - رضي الله عنه - وقف أمام المرآة يصلح هيئته، ويعدل من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي، ثم تلا الآية الكريمة:{ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ }.

وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم[1].

ولم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزوجها، ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا تُعرف بإسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسمائهن وأنسابهن، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي وكان أبوها يهوديًّا محارباً للرسول صلى

(1) ملامح المجتمع المسلم صـ 340.

الله عليه وسلم.

كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري، وتؤجر أملاكها وتستأجر وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم.

وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثاً، ولازالت في بعض البلاد مقيَّدة إلى حدَّ ما بإرادة الزوج[1].

9ـ المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلام يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة والجمال، ولهذا أحلّ لها بعض ما حُرِّم على الرجال، بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلي بالذهب، ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم**)[2].

كما أنه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبه بالرجال في الزي والحركة والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال، مثلما لعَن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة[3]، والديوث**)[1].

---

(1) المصدر نفسه صـ341.

(2) سنن ابن ماجه رقم 3595.

(3) المترجلة: المتشبه بالرجال.

والإسلام يحمي هذه الأنوثة ويرعى ضعفها فيجعلها أبداً في ظل رجل مكفولة النفقات، مكفية الحاجات، فهي في كف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها، وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها ومزاحمة الرجال بالمناكب.

والإسلام يحافظ على خُلُقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء - فضلاً عن أيدي السوء أن تمتد إليها.

ولهذا يوجب الإسلام عليها؟

أ – الغض من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها:

قال تعالى:{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } [النور: ٣١].

ب – الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعنات لها ولا تضييق عليها: قال تعالى:{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ} [النور: ٣١].

ج – ألا تبدي زينتها الخفية – كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين - إلا لزوجها ومحارمها الذين يشق عليها أن تستر منهم أستتارها من الأجانب:{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ

(1) مسند أحمد رقم 1680 وإسناده صحيح، الديوث: الذي لا يبالي من دخل على أهله.

أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ} [النور: ٣١].

د – أن تتوقر في مشيتها وكلامها قال تعالى: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ} [النور: ٣١].

وقال: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا} [الأحزاب: ٣٢]. فليست ممنوعة من الكلام، وليس صورتها عورة، بل هي مأمورة، أن تقول قولا معروفا[1].

هـ – أن تتجنب كل ما يجذب انتباه إليها: ويغريه بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة، فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيُّما امرأة استعطرت ثم خرجت من بيتها ليشم الناس ريحها فهي زانية)[2].

و– أن تمتنع عن الخلوة بأي رجل ليس زوجها ولا محرْما لها صوناً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة الزور، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يخلون رجل بأمرأة إلا مع ذي محرم)[3].

ز– ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية، ومصحة معتبرة وبالقدر اللازم، كالصلاة في المسجد، وطلب العلم والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تحرم المرأة من المشاركة في خدمة

---

(1) ملامح المجتمع المسلم ص366 - 367.
(2) سنن الترمذي رقم 2786 حسن صحيح.
(3) البخاري رقم 1088 فتح الباري (659/2).

مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين من ناحية، ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصون عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة، وهو - مع هذا كله - يحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزات والاضطرابات، نتيجة لجموع الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات وهو أيضاً - بهذه الأحكام والتشريعات - يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق ويحمي المجتمع كله من عوامل السقوط والانحلال[1].

الثاني عشر: بناء الأمة الشهيدة على الناس:

من أهداف الإسلام الأساسية، تكوين " أمة " متميزة واستطاع النبي صلى الله عليه وسلم تحقيق ذلك وفق رؤية واضحة مبنية على عقيدة راسخة، وشريعة حاكمة، وتخلص العرب من الفرقة والشتات والعصبيات القبلية والنعرات الجاهلية، وانتقلوا نقلة كبيرة في عالم الفكر، وعالم الشعور، وعالم الواقع، وأصبحت تلك القبائل أمة واحدة، تعبد إلهًا واحدًا وتخضع لكتاب واحد، وتنقاد لزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم المبين والمعتبر، والموضح لهم التعاليم الإلهية، وأصبحت هذه الأمة لا تقوم على رابطة عرقية، ولا لونية، ولا إقليمية، ولا طبقية، بل هي أمة عقيدة ورسالة قبل كل شيء.

(1) ملامح المجتمع المسلم ص368.

هي أمة الإسلام أو أمة المسلمين كما قال الله تعالى:{هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ} [الحج: ٧٨][1]. [2]

فقد أخرج الله الأمة المسلمة - التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم - لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والعطاء، والتميز والتماسك وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الحياة وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة. [3]

ولم تنل هذه الأمة هذه المكانة السامية بين الأمم مصادفة ولا جزافاً ولا محاباة، فالله سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، بين وجه ذلك وعلته في نفس الآية، فقال تعالى:{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، على أن هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة؛ إذ هناك أمور وخلال كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكن

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص97.
(2) في ظلال القرآن (1 /129) سيد قطب.
(3) في ظلال القرآن الكريم صـ71.

هذه الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمر هذه الخيرية ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمور في جيل من الأجيال هذه الأمة لم يكن حريًّا بهذه الخيرية التي حظيت بها[1].

ـ أوصاف الأمة الأساسية في القرآن:

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة:

1 ـ الربانية:

ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى وتعهدتها تعاليمه وأحكامه هي من اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائدة: ٣].

قال تعالى هو صانع هذه الأمة، ولهذا نجد القرآن الكريم يقول: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا} [البقرة: ١٤٣]، فهذا التعبير:{جَعَلْنَاكُمْ} يفيد أن الله هو جاعل هذه الأمة ومستخدمها وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى:{كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، فتعبير{أُخْرِجَتْ} يدل على أن هناك مُخرجاً أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطاً، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نبات مقصود متعهِّد بالعناية والرعاية والذي أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمة مصدرها رباني، ووجهتها ربانية كذلك؛ لأنها تعيش لله،

(1) الوسطية في القرآن الكريم للصَّلاَّبي صـ71.

ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾} [الأنعام: ١٦٢].

2 ـ الوسطية:

والثاني: الوسطية التي تؤهل هذه الأمة للشهادة على الناس وثبوتها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الآية الكريمة:{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣].

ومن وسطية شاملة جامعة، وسطية في الاعتقاد والتصور ووسطية في الشعائر والتعبد ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع ووسطية في الأفكار والمشاعر، وسطية بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين العقلانية والوجدانية، بين الفردية والجماعية بين الثبات والتطور(1).

إنها الأمة التي تمثل " الصراط المستقيم " بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

3 ـ الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة فهي أمة دعوة ورسالة وليست أمة منكفئة

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ98.

عن نفسها تحتكر رسالة الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية رسالة لكل الأجناس، ولكل الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات.

قال تعالى:{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾} [الفرقان: ١].

وقال تعالى:{ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: ١٥٨].

4ـ الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة: فالأمة التي يريدها الإسلام أمة الوحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعاً في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

- قال تعالى:{ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾} [الأنبياء: ٩٢].

- وقال تعالى:{ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾} [المؤمنون: ٥٢].

ولهذا لا يجوز أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية، فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمماً متفرقة كما أراد

الاستعمار وهي أمة ذات شعوب كما قال تعالى:{وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ} [الحجرات: ١٣]، فلا بأس أن نقول الشعوب الإسلامية بدل " الأمم الإسلامية " (1).

ومن المفيد هنا أن ننبِّه على قضية ذات شأن وهي: أن الإيمان بـ " الأمة " المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان، والتي تضم جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا - لا ينفى أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفرِّطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة في ظل القيادة الإسلامية العامة؛ ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إن حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم: نزعة فطرية لا غبار عليها، ولا خطر فيها، كما لا خطر في حبه لأسرته، واهتمامه بها.

إن الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقفوا موقفاً معادياً للإسلام وحادّوا الله ورسوله، هنا تحرم الموادة والموالاة ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وبناته وبنيه وزوجه وأخيه، قال تعالى:{لَّا تَجِدُ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ص101.

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾} [التوبة: ٢٣ - ٢٤].

لا بأس أن يحب الرجل أسرته، ويحب قومه وعشيرته وشعبه ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شيء هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ::: إذا افتخروا بقيس أو تميم[1]

الثالث عشر: السماحة:

السماحة أول أوصاف الشريعة، وأكبر مقاصدها، والسماحة سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشق لفظ يدل على هذا المعنى، يقال: سمح فلان إذا جاء بمال له. قال المقنع الكندي:

ليس العطاء من الفضول سماحة ::: حتى تجود وما لديك قليل

فالسماحة أخص من الجود، ولهذا قابلها زياد الأعجم بالندى في قوله:

إن السماحة والمروءة والندى ::: في قُبَّةٍ ضُربت على ابنِ الحَشْرَجِ

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ 102.

فتدل السماحة على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى)[1].

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) [2].

فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى:{يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الآية أو هذا الخبر، حتى يقول معترض: إن الأصول القطعية لا تثبت بالظواهر؛ لأن أدلة هذا الأصل كثيرة منتشرة وكثرة الظواهر تفيد القطع ولهذا قال الامام مالك بن أنس في مواضع من الموطأ: ودين الله يسر. وحسبك بهذه الكلمة من ذلك الإمام فإنه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة. إن السماحة أكمل وصف لاطمئنان النفس وأعون على قبول الهدى والإرشاد[3]، قال تعالى:{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

(1) البخاري رقم 2076.
(2) البخاري الأدب المفرد رقم 188.
(3) أصول النظام الاجتماعي محمد الطاهر عاشور صـ51.

إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلى الجبلة فهي كائنة في النفوس سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى:{يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾} [النساء: ٢٨].

وقد أراد الله أن تكون الشريعة الإسلامية شريعة عامة دائمة، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلا، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، بسماحتها أشدَّ ملاءمة للنفوس؛ لأن فيها إراحة النفوس في حاليْ خُوَيصتها ومجتمعها[1].

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، إذ أرانا التاريخ أن سرعة امتثال الأمم للشرائع ودوامهم على اتباعها كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغ بعض الأديان من الشدة حدّاً متجاوزاً لأصل السماحة لحق اتباعه العنت ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه أو يفرِّطوا في معظمه[2].

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقدر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة انفتاح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى:{فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ} [البقرة: ١٧٣].

وبقوله:{إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [الأنعام: ١١٩]، وفي الحديث: (إن الله يحب

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر صـ271.
(2) أصول النظام الاجتماعي صـ52.

أن تؤتى رُخصه كما يحب أن تؤتى عزائمُه) [1].

ومن قواعد الفقه المشهورة: المشقة تجلب التيسير [2].

1 – ومن سماحة القرآن الكريم: إنكاره على أصحاب النزعات المتطرفة والذين يحرمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده.

- قال تعالى:{يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢} [الأعراف: ٣١ - ٣٢]. وفي القرآن المدني، يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨} [المائدة: ٨٧ - ٨٨].

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات ومقاومة الغلو الذي وجد في بعض الأديان، أو عند بعض المتنطعين [3].

2 – ومن سماحة الإسلام أيضاً: ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قال تعالى:{ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ} [النحل: ١٢٥].

ومن تأمل الآية الكريمة يجد أنها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة

(1) صحيح ابن حبان رقم 354.
(2) أصول النظام الاجتماعي صـ52.
(3) سماحة الإسلام عمر عبد العزيز صـ370.

الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما: حسنة، والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادل بالتي هي أحسن جذباً للقلوب النافرة؛ وتقريباً للأنفس المتباعدة[1].

3 - من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم: جاء فتى من قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنى، فثار الصحابة وهموا به لجرأته على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم وقف موقفاً آخر فقال: (أدنه) فدنا فقال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداك؟ قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: (أتحبه لكذا؟) فيقول: لا جعلني الله فداك، فيقول صلى الله عليه وسلم ولا الناس يحبونه.. فوضع يده عليه وقال: (اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه)، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[2].

وإنما عامله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الرفق، تحسيناً للظن به، وأن الخير كامن فيه والشر طارئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله، واطمأن قلبه إلى خبث الزنى وفحشه، وكسب مع ذلك دعاء النبي صلى الله عليه وسلم[3].

---

(1) المصدر نفسه صـ30.
(2) مسند أحمد (5 / 256).
(3) سماحة الإسلام د.عمر عبد العزيز صـ31.

الرابع عشر: الرحمة:

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها والتوبة بشأنها لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدنيوية[1].

1 – الرحمة صفة من صفات الله تعالى:

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه كثيراً في القرآن العظيم في نحو مائتي آية، فضلاً عند تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك البسملة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براءة[2].

وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته.

ـ قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

ـ وقال تعالى على لسان ملائكته الكرام: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [غافر: ٧].

ـ وقال تعالى تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين إن هم كذبوه: {رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}

(1) أخلاف النبي في القرآن والسنة د. أحمد الحداد (2 / 611).
(2) المصدر نفسه (2 / 612).

[الأنعام: ١٤٧].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبداً، كما قال سبحانه:{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ } [الأنعام: ٥٤].

وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا فيها يتعايشون ويؤاخون، ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لاحظ للكافرين فيها(1).

2 – من مظاهر رحمته بخلقه:

وقد كانت أجل مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه، وسيد رسله، وصفوته من خلقه محمدًا بن عبد الله صلوات الله وسلمه عليه الذي امتن به على الأمة، وكشف به الظلمة وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال تعالى:{وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾} [الأنبياء: ١٠٧].

وكما قال تعالى:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾} [التوبة: ١٢٨].

ـ وقد حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، فقال: (إن الله لمَّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن

(1) محاسن التأويل (7 / 157) للقاسمي.

رحمتي سبقت غضبي)[1].

ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدَّابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[2].

ـ ومن حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قُدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديُها، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟) قلنا: لا والله وهي تقدر على ألاّ تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[3].

3 – حض المؤمنين على التحلي بها:

ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثهم عليها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن لينالوا أجرها وعظيم ثوابها، وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذين عظم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره، وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمة عند الكبر محتَّمة حيث قال تعالى:{ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا } [الإسراء: ٢٤].

(1) مسلم رقم 2751.
(2) مسلم رقم 2754.
(3) مسلم رقم 2754، تحلب: اجتمع حليب ثديها فيه.

وقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم:{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ } [الفتح: ٢٩].

وإثباتها يلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه:{مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ } [المائدة: ٥٤].

إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم بسبب التراحم بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجل صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ، مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله:{ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ } [البلد: ١٧ - ١٨].

أي: أصحاب اليمين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، والذين قال الله تعالى فيهم:{وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤} [الواقعة: ٢٧ - ٣٤][1].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في تحقيق هذا المقصد وهو الرحمة بالعالمين، فكانت رحمته بالمؤمنين، وبالأهل والعيال وبالضعفاء والكافرين والحيوان وكتب السيرة مليئة بالمواقف والأحاديث الدالة على ذلك.

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 615).

الخامس عشر: الوفاء بالعهود والعقود:

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر وسلامة الإيمان(1).

1. الترغيب بالوفاء بالعهد:

رغب الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعد الله لهم من الثواب وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب، قال تعالى:{وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠} [الفتح: ١٠].

وقد فصل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال:{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤}
[الرعد: ١٩ - ٢٤].

فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم، بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم، وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهلوه، لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الثناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله إلا أن يكون ممن غلبت عليه

(1) المصدر نفسه (2/ 549).

شقوته، وأولئك لهم سوء الدار.

2ـ الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن:

الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنه مبني على المشاحة والمقاصة، فالوفاء فيه يصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات منها:

- قوله تعالى:{وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ } [الأنعام: ١٥٢].

- وقال تعالى:{ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ} [الإسراء: ٣٥][1].

وتحدث القرآن الكريم عن شعيب عليه السلام مع قومه، فقد كان قومه بحكم موقع بلادهم الجغرافي يتحكمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق، فكانوا يفرضون على الناس ما شاؤوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعياً إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاة لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات حتى صارت أمراً متعارفاً عليه عندهم، فلما بعث الله شعيباً عليه السلام استهل دعوته بمحاربة ما كانوا عليه من عبادة الاصنام والأوثان، ثم ثنى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها نقص الميزان

(1) المصدر نفسه (2/ 554).

والمكيال[1].

قال تعالى:{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾} [الأعراف: ٨٥].

ولهذه الآية نظائر في سورة هود، قال تعالى:{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾} [هود: ٨٤ - ٨٥].

وقال تعالى في سورة الشعراء{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾} [الشعراء: ١٨١].

ونجد تركيز شعيب على معالجة هذا الانحراف المتأصل في قومه بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

وقد كان لقوم شعيب معاملات أخرى جائزة غير نقص المكيال والميزان وذلك أمر متوقع ممن يمارس هذا العمل ونجد شعيباً يذكر هذه المعاملات في جملة من الأمور التي نهاهم عنها وهي:

أ ـ بخس الناس أشياءهم: وذلك في قوله تعالى:{وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ } [الأعراف: ٨٥].

---

(1) أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا صـ 450.

والبخس في الأصل هو النقص، ومن أحسن ما قيل في حدِّه قول ابن العربي رحمه الله: البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه(1).

فالبخس على هذا أعم من نقص الميزان والمكيال، فإنه يكون في المكيل والموزون وغيرهما كالمعدودات، والمقدرات فيعم كل تصرف يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا تنقضي(2).

ب ـ الفساد في الأرض: وقد ورد في قوله:{وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا} [الأعراف: ٨٥].

وقوله{وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ} [هود: ٨٥].

والفساد في الأرض أعمّ من كل ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادة غير الله، ونقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وغير ذلك(3).

ج ـ قطع الطريق: قال تعالى:{ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ} [الأعراف: ٨٦]. وفي هذه الآية نهيٌ عما كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته، فيصدونه

---

(1) أحكام القرآن (2/ 318).
(2) أسباب هلاك الأمم السالفة سعيد محمد بابا صـ 450.
(3) المصدر نفسه صـ 451.

ويقولون: إنه كذاب[1]، وهذا من الأوجه التي حُملت هذه الجملة، وذكر فيها وجهان آخران، أولها: قطع الطريق وسلب أموال الناس، وثانيها: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس وجوّز الشوكاني رحمه الله حمل الحملة على هذه الأوجه كلها[2].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه، فإنه لم يلق منهم غير العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم وتأصلها فيهم، وفي آخر الأمر ردوا عليه ردّاً قبيحاً، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضربًا من الهذيان سببه ما يدوم عليه من الصلاة، قال تعالى:{ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾} [هود: ٨٧]، فقولهم:{أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء} يعنون به ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان وبخس الناس حقوقهم وسائر معاملاتهم الظالمة، فاستهزأوا بشعيب، وأنكروا عليه تدخله في تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون فيها كيف شاءوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عين ما يردِّده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا العصر، بل وفي كل عصر، يتعاطون أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الغش والخداع، والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة، فإذا نهوا عن ذلك تعللوا واحتجوا بما يسمونه بحرية الاقتصاد، واستنكروا أن

---

(1) أسباب هلاك الأمم السالفة سعيد محمد بابا صـ 451.
(2) المصدر نفسه صـ 452، فتح القدير (2/ 224).

يتدخل الدين في هذه الأمور[1].

والأجدر بهؤلاء، لا سيما المنتسبين منهم إلى الإسلام أن يعتبروا بما حلّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك بسبب معاملاتهم الظالمة وإصرارهم عليها، أفيأمن أحدهم أن يأخذه الله بعاجل العذاب، ويجعله عبرة لأهل زمانه ولمن بعده، كما جعل قوم شعيب عبرة لأهل زمانهم ولمن بعدهم والعاقل من اتعظ بغيره، لا من وُعظ به غيره[2]، فقد كان قوم شعيب أهل شرك وكفر، وتطفيف للمكاييل والموازين، ولم يُجد معهم دعوة شعيب إيابهم إلى التوحيد، وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عناداً وإصراراً، فأصابتهم الظلة وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام[3].

3- الأمر بالوفاء بالعقود:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ} [المائدة: ١].

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقوداً؛ لأنه ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق[4]، فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان

(1) في ظلال القرآن (4/ 609).
(2) أسباب هلاك الأمم السالفة صـ 453.
(3) تفسير ابن كثير (2/ 242).
(4) التفسير الكبير (11/ 123).

أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجاً لهم على الوفاء بالعقود؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تعلوا به[1].

4ـ الأمر بالوفاء بالنذر:

قال تعالى:{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ [2] وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج: ٢٩].

والنذور: جمع نذر وهو التزام قربة لم تتعين في الشرع[3]، ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه.

وهو ما شملته آية المائدة السابقة؛ لأن عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب في الدنيا، إذ لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان[4].

ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفاً حيث قال:{وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾} [البقرة: ٢٧٠].

فإذا كان النذر يعلمه الله تعالى، فإن رهن المجازاة به أداء أو تفريطاً، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يف به أما إذا وفى به فإنه يكون ذا

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن (2/ 558).
(2) أي ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر.
(3) اليقوت النفيس للشاطري صـ 264.
(4) أخلاق النبي ﷺ (2/ 559).

مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم[1].

5. تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء:

قال تعالى:{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾} [الرعد: ١٩ - ٢٠].

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهداً ولا ميثاقاً ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده، قال تعالى:{وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ
فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ } [البقرة: ١٧٧].

فوصف الله تعالى أصحاب هذه الأخلاق، ومنها خلق الوفاء بأنهم أهل صدق وأهل تقوى؛ وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغ هذا الثناء من الملك الجليل المتضمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة تجد التعبير قاصراً عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصوفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب مقام المُثني والمثيب، وجعلنا الله ممن نال حظاً من ثنائه وجزائه الكريم،

(1) المصدر نفسه (2/ 559).

فإن جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى، ولا غرو أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنهم قد تحلوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه وهو أصدق القائلين بقوله:{وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ} [التوبة: ١١١].

كما أنه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة، السلام فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في الوفاء، إذ وفّى وفاء لم يُعرف أحد من البشر أن ابتلى بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه، فلذة كبده بيده فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتلّه للجبين ليحقق أمر الله، فلما علم الله صدقه ووفاءه فداه بذبح عظيم وناداه معبراً عن رضاه عنه وعن وفائه بقوله:{يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾} [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥][1].

كما ابتلاه الله أيضاً بكلمات من التكاليف الشرعية، قال تعالى: {وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾} [البقرة: ١٢٤].

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال:{ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾} [النجم: ٣٧].

وفّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية[2].

---

(1) أخلاق النبي ﷺ (2/ 560).

(2) أخلاق النبي ﷺ (2/ 561).

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خُلق الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في غيابة الجُبّ، ناهيك عما أورثوه أباهم نبي الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوانه بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض، قال تعالى:{أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ } [يوسف: ٥٩].

هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوان والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق الكريم اللائق من نبي كريم، ولا ريب فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم[1]

6ـ ما أعده الله لأهل الوفاء من الأجر والجزاء:

قال تعالى:{إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ } [الإنسان: ٥ - ٧].

فسماهم الله تعالى أبراراً، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه الله على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى[2]،

(1) المصدر نفسه (2/ 561).
(2) المصدر نفسه (2/ 561)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل صـ 774.

وذلك يدل على قوة الإيمان؛ إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند الله تعالى إنما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تعالى:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ} [الحجرات: ١٣].

جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه[1].

فهذه من أهم مقاصد القرآن الكريم، وقد تناولنا بعضها، كتصحيح المعتقد، وتقوى الله وعبادته وتزكية النفس، والحرية، والشورى، وكرامة الإنسان، وتحرير المرأة من ظلم الجاهلية، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة، والرحمة، والوفاء بالعهود.

* * *

(1) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (2/ 561).

المبحث الخامس

جمـع القــرآن وكتابـته

أولا: جمع القرآن الكريم كتابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وردت لفظ " الجمع " بمعنى: " الحفظ مع دقة الترتيب " عدة مرات في كتاب الله وذلك من مثل قوله تعالى مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم:{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾} [القيامة: ١٦ - ١٩].

كما وردت لفظة " الجمع " بمعنى: " الكتابة والتدوين " والمعنى الأول آتاه الله تعالى - لخاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم - ولعدد غير قليل من صحابته الكرام وممن تابعهم من الصالحين إلى اليوم وحتى يوم الدين، وهؤلاء تدارسوا القرآن الكريم، ولا يزالون يتدارسونه ويستظهرونه ليتمكنوا من القراءة به في الصلوات المكتوبة وفي النوافل وفي الاستشهاد وأما جمع القرآن الكريم بمعنى تدوينه كتابة فقد مرّ بمراحل ثلاثة:

أولها: جمع القرآن الكريم كتابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم(1).

إن جميع الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أن ترتيب آيات القرآن الكريم، حسبما عليه المصحف الآن، إنما هو ترتيب توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده وإنما كان يتلقى ترتيبها بعضها إلى جانب بعض، وحياً من عند الله بواسطة جبريل.

---

(1) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار.

روى أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوّبه، قال: (أتاني جبريل فأمرني أن ضع هذه الآية هذا الموضع ببصره، ثم صوّبه قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة:)ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ } [النحل: ٩٠][(1)]).

إن من مظاهر عناية الله بالقرآن الكريم وحفظه ما تمّ على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من حفظ القرآن الكريم في صدورهم وكتابته في الصحف وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته في ذلك أرقى مناهج التوثيق ذلك أن القرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - صلوات الله وسلامه عليه - منجماً في ثلاث وعشرين سنة[(2)]، حسب الحوادث ومقتضى الحال، وكانت السورة تدون ساعة نزولها، إذ كان المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا ما نزلت عليه آية أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا... سورة كذا[(3)].

ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن توقيفي، بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر الله ووحي من الله[(4)].

وما يقال عن ترتيب آيات القرآن هو الذي يقوله إجماع المؤرخين والمحدّثين والباحثين عن ترتيب السور، ووضع البسملة في

---

(1) مسند أحمد، لا يأتيه الباطل د. محمد سعيد رمضان صـ 217.
(2) مباحث في علوم القرآن مناع القطان صـ 105.
(3) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (1/ 60 - 61).
(4) البرهان في علوم القرآن (1/ 234 - 235).

رؤوسها، قال القاضي أبو بكر بن الطيب رواية عن مكي رحمه الله في تفسير سورة " براءة " إن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو توقيف من الله عز وجل، ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة[1].

وروى القرطبي عن ابن وهب قال: سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا في المدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا، وألفّ القرآن على علم ممّن ألفّه[2].

هذا عن ترتيب آي القرآن، وسوره أما عن كتابته، فمن المعلوم أولاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، أجمع على ذلك عامة المؤرخين وكل المشركين الذين كانوا على عهد رسول الله؛ لذا فقد كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن إلى أشخاص من الصحابة بأعيانهم كانوا يُسمون كتاب الوحي، وأشهرهم الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله ابن رواحة، وقدا كانوا يكتبون ما يتنزل من القرآن تباعاً حسب الترتيب الذي يأتي به جبريل، فيما تيسر لهم، من العظام المرققة والمخصصة لذلك، وألواح الحجارة الرقيقة والجلود، وقد كانوا يضعون ما يكتبونه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكتبون لأنفسهم إن شاؤوا صوراً عنها يحفظونها لديهم، ولقد كان من

(1) لا يأتيه الباطل محمد سعيد رمضان صـ 217.
(2) تفسير القرطبي (1/ 61) البخاري (5/ 165).

الصحابة من يتتبع ما ينزل من آيات القرآن وتتبع ترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب، حتى كان فيهم من حفظ القرآن كله، فمن المشاهير أبي بن كعب وزيد بن ثابت وآخرون[1].

وظل الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيباً، حتى ارتفعت نسبة الحفاظ منهم إلى عدد لا يحصى.

يتضح لك من هذا الذي ذكرناه أن القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة، وبلغوه إلى من بعدهم بطريقتين اثنتين:

أحدهما: الكتابة التي كانت تتم للقرآن بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأشخاص بأعيانهم وكّل إليهم هذا الأمر، ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه إلا والقرآن مكتوب كله في بيته.

الثانية: حفظه في الصدور عن طريق التلقي الشفهي من كبار قراء الصحابة، وحفاظهم الذين تلقوه بدورهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أقرهم على كيفية النطق والأداء[2].

وكان كل ما يكتب من آيات وسور القرآن الكريم بعد الوحي بها مباشرة يحفظ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع استنساخ كُتّاب الوحي نسخاً لأنفسهم من جميع ما أملي على كل منهم وبذلك تم جمع القرآن الكريم كله كتابة وحفظاً على عهد رسول الله صلى

(1) البرهان للزركشي (1/ 238)، الإتقان (1/ 58)، فتح الباري شرح البخاري (9/ 18)، لا يأتيه الباطل صـ 218.
(2) لا يأتيه الباطل صـ 219.

الله عليه وسلم[1].

وثبت أن جبريل عليه السلام كان يعارض الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن مرّة واحدة في كل سنة، ثم عارضه به في السنة التي توفي فيها صلى الله عليه وسلم مرتين[2]، ومعنى هذا أن القرآن الكريم كان في صورته التامة في هذه السنة التي تمّ عرضه فيها مرتان، ولذلك شواهد كثيرة ذكرها العلماء من أظهرها ما أورده البغوي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان، وزيد بن ثابت، والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرؤون القراءة العامة فيه، وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده الصديق في جمعه أولاً وولاّه عثمان كتبة المصحف[3].

على أن القرآن الكريم رغم ذلك لم يجمع بين دفتين في مصحف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لضيق الوقت بين آخر آية نزلت من القرآن الكريم وبين وفاته صلى الله عليه وسلم[4].

---

(1) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي صـ 68.
(2) البخاري رقم 4710.
(3) شرح السنة (3/ 50)، تميز الأمة الإسلامية د. اسحاق السعدي (1/ 595).
(4) لا يأتيه الباطل صـ 219.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في مصحف واحد على عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب مسيلمة الكذّاب في اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن حيث جمع من الرقاع والعظام والسعف ومن صدور الرجال[1]، وأسند أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا العمل العظيم والمشروع الحضاري الضخم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. يروي زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول: بعث إلي أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر[2] يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]؟ فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل لا نتهمك[4]، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه[5]، قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما

(1) حروب الردة وبناء الدولة أحمد سعيد صـ 145.
(2) استحر: كثر واشتد.
(3) أبو بكر الصديق للصلابي صـ 262.
(4) هذه الصفات معيار لاختيار زيد.
(5) أي من الأشياء التي عندي وعند غيرك.

كلفني به من جمع القرآن، فتتبعت القرآن من العسب[1] واللخاف[2]، وصدور الرجال، والرقاع[3]، والأكتاف[4]. قال: حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره.

قال تعالى:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[5]، وعلق البغوي على هذا الحديث فقال: فيه البيان الواضح أن الصحابة - رضي الله عنهم - جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء في الحديث وهو أنه كان مفرقاً في العسب واللخاف وصدور الرجال، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله ودعوه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب

(1) العسب: جريد النخل.
(2) اللخاف: جمع لخفة: وهي صفائح الحجارة.
(3) الرقاع: جمع رقعة وهي قطع الجلود.
(4) الأكتاف: جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة.
(5) البخاري رقم 4986.

الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل صلوات الله عليه، إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية إن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا[1].

وهكذا يتضح للقارئ الكريم أن من أوليات أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه أول من جمع القرآن الكريم. يقول صعصعة بن صوحان رحمه الله: أول من جمع بين اللوحين، وورث الكلالة[2]، أبو بكر.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين[3].

وقد اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة؛ وذلك لأنه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهي:

1ـ كونه شاباً، حيث كان عمره 21 سنة، فيكون أنشط لما يطلب منه.

2ـ كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ من وهبه الله عقلاً راجحاً فقد يسر له سبل الخير.

3ـ كونه ثقة، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عمله مقبولاً، وتركن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

4ـ كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر وممارسة عملية له فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه[4].

---

(1) شرح السنة (4/ 522) للبغوي.

(2) الكلالة: من لا ولد له ولا والد.

(3) إسناده صحيح أخرجه ابن أبي شيبة (7/ 196).

(4) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمي صـ 73.

هذه الصفات الجليلة جعلت الصديق يُرشح زيداً لجمع القرآن، فكان به جديراً، وبالقيام به خبيراً.

5ـ ويضاف لذلك أنه أحد الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع الإتقان، وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن فكان لا يثبت شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومحفوظاً من الصحابة، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، خشية أن يكون في الحفظ خطأ أو وهم، وأيضاً لم يقبل من أحد شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن[1].

وعلى هذا المنهج استمر زيد رضي الله عنه في جمع القرآن حذراً متثبتاً مبالغاً في الدقة والتحري[2].

إن زيداً اتبع طريقة في الجمع نستطيع أن نقول عنها في غير تردد، أنها طريقة فذّة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية وأنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، وأن الصحابي الجليل قد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، وأن هذه الدقة في جمع القرآن الكريم متصلة بإيمان زيد بالله، فالقرآن الكريم كلام الله جل شأنه فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه وزر ما كان أحرص زيداً - في حسن إسلامه وجميل صحبته لرسول الله صلى

---

(1) المصدر نفسه صـ 74.

(2) الصديق للصلابي صـ 264.

الله عليه وسلم أن يتنزه عنه.

إن ما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه بتكليف من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاونة عمر رضي الله عنه وأبي بن كعب ومشاركة جمهور الصحابة ممن كان يحفظ القرآن أو يكتبه[1]، وإقرار جمع من المهاجرين والأنصار مظهر من مظاهر العناية الربانية بحفظ القرآن الكريم وتوفيق من الله للأمة الإسلامية وشديد منه لمسيرتها ويتضمن ذلك - أيضاً - كما قال أبو زهرة: حقيقتين مهمتين تدلان على إجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنه مصون بعناية الله سبحانه وتعالى، ومحفوظ بحفظه وإلهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته[2].

الأولى: أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه إعادة مكتوب[3]، فقد كتب القرآن كله في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل زيد الابتدائي هو البحث عن الرقاع والعظام التي كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتها بأمرين، بشهادة اثنين على الرقعة التي فيها الآية والآيتان أو الآيات، وبحفظ زيد نفسه، وبالحافظين من الصحابة، وقد كانوا الجمع الغفير والعدد الكبير، فما كان لأحد أن يقول: إن زيداً كتب من غير أصل مادي قائم، بل إنه أخذ من أصل قائم ثابت مادي، وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماماً ما كتب في

(1) الحضارة الإسلامية توفيق الواعي صـ 281.
(2) تميز الأمة الإسلامية (1/ 603).
(3) المصدر نفسه (1/ 603).

عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس كتابة زيد، بل ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام وأملاه وما حفظه الروح القدس.

الثانية: أن عمل زيد لم يكن عملاً أحاديًّا، بل كان عملاً جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد طلب أبو بكر إلى كل ما عنده شيءٌ مكتوب أن يجيء به إلى زيد، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيد من الرقاع، والعظام، وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ما كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

واستمر الأمر كذلك، حتى إذا ما أتم زيد ما كتب، تذاكره الناس، وتعرفوه وأقروه، فكان المكتوب متواتراً بالكتاب، ومتواتراً بالحفظ في الصدور، وما تمّ هذا الكتاب في الوجود غير القرآن[2] - وايم الله - عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم[3].

وشرف للأمة الإسلامية تميزت به على سائر الأمم، ووفقها الله لخدمة كتابه في منهج علمي سبقت إليه جميع الأمم[4].

---

(1) دراسات في القرآن، أحمد خليل صـ 90.
(2) تميز الأمة الإسلامية (1/ 604).
(3) دراسات تاريخية من القرآن الكريم محمد بيومي صـ 31 - 32.
(4) المصدر نفسه (1/ 604).

ثالثا: جمع القرآن الكريم في عدد من المصاحف على عهد ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه:

1ـ الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحف ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصُحف في المصاحف رد عثمان رضي الله عنه الصُحف إلى حفصة، فأرسل إلى كلِّ أفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن الكريم في كلِّ صحيفة، أو مصحف أن يُحرق(1).

ويؤخذ من الحديث الصحيح أمور منها:

أ ـ أن السبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعاً، مرتباً في صحف أبي بكر الصديق، إنما هو اختلاف

---

(1) البخاري، ك فضائل القرآن، رقم 4987.

قرّاء المسلمين في القراءة، اختلافاً أوشك أن يؤدي بهم إلى أخطر فتنة في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعي، والسياسي، والخُلُقي، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتي خير من قراءتك، فأفزع ذلك حذيفة، ففزع إلى خليفة المسلمين، وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف، فيستشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيُمسّ نصُّ القرآن، وتُحرّف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذي وقع بين اليهود، والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها في كتابها.

ب ـ أن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقاً تاماً على أن ما في تلك الصُّحف هو القرآن الكريم كما تلقته عن النبي صلى الله عليه وسلم في آخر عرضية على أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأن تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم عرف عمر حضور أجله ولم يوّلى عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنما جعل الأمر شورى في الرّهط المعطفين بالرّضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصُّحف، وعنها نقل مصحفه " الرّسمي " وأنه أمر أربعة من أشهر قرّاء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن، ووعياً لحروفه، وأداءً لقراءاته، وفهماً لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين وواحداً أنصارياً، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق.

وفي بعض الروايات: أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبي بن كعب، وآخرون من قريش والأنصار[1].

ج ـ ونأخذ من هذا: إن الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأن القرار العسكري يصدر من المدينة، وأن الولايات الإسلامية كلها كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان في عهده، بل يدّل على أن هناك إجماعاً من الصحابة والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة، لرفع اختلاف الناس في قراءة القرآن، يدل على: أن القضايا الشرعية الكبرى كان يستشار فيها الخليفة في المدينة، وأن المدينة ما زالت دار السنة ومجمع فقهاء الصحابة[2].

2 ـ استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيان الأمة، وأعلام الأئمة، وعلماء الصحابة، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها، ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه، فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض من عقد عليه

---

(1) عثمان بن عفان لصادق عرجون صـ 171.
(2) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2 / 244).

إجماعهم فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الكريم الذي يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين[1].

إن عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما أنه لم يضع ذلك من قبل نفسه، إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم وأعجبهم هذا الفعل، وقالوا: نعم ما رأيت، وقالوا: أيضاً قد أحسن أي: في فعله في المصاحف[2].

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حين مشق[3]، عثمان رضي الله عنه المصاحف، فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل[4] منه، وكان علي رضي الله عنه ينهى من يعيب على عثمان رضي الله عنه بذلك، ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا خيراً - فوالله ما فعل الذي فعل - أي في المصاحف - إلا عن ملأ منا جميعاً، أي: الصحابة....والله لو وليت، لفعلت مثل الذي فعل[5].

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرد عن الهوى: أن الواجب على المسلم

(1) عثمان بن عفان لصادق عرجون صـ175.
(2) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1 / 78)، محمد الغبان.
(3) مشق في الكتابة: مد في حروفها وجودها.
(4) التاريخ الصغير للبخاري (1 / 94)، إسناده حسن لغيره.
(5) فتح الباري (9 / 18)، إسناده صحيح.تصر

الرضا بهذا الصنيع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه وحفظ به القرآن الكريم[1].

قال القرطبي في التفسير: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح، وثبت من القراءة المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإطراح ما سواه، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقاً[2].

3 ـ الفرق بين جمع الصديق، وجمع عثمان رضي الله عنهما:

الفرق بين أبو بكر وجمع عثمان: أن جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سورهم على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وجمع عثمان كان لما كثُر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى: أن الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة[3].

---

(1) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1 / 78)
(2) الجامع لأحكام القرآن (1 / 78).
(3) عثمان بن عفان للصلابي صـ253.

4. هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

ذهب الشيخ المحقق صادق عرجون - رحمه الله - إلى أنَّ: صحف الصِّدِّيق التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين لم تكن جامعة للأحرف السبعة التي وردت في صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت حرف منها، هو الذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقرَّ عليها الأمر في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التّيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لمَّا استفاض القرآن، وتمازج الناس، وتوحَّدت لغاتهم، قال الإمام الطحاويُّ: إنَّما كانت السَّعة للناس في الحروف، لعجزهم عن أخذ القرآن الكريم على غير لغاتهم؛ لأنَّهم كانوا أمِّيين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلمَّا كان يشقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللّغات، ولو رَام ذلك لم يتهيّأ له إلا بمشقة عظيمة - وُسّع لهم - فلا اختلاف الألفاظ، إذا كان المعنى متّفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرؤوا بخلافها. وقال ابن عبد البرِّ: فبات بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقف خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن الكريم على حرف واحد[1].

---

(1) عثمان بن عفان لصادق عرجون صـ180.

وقال الطبري: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم، ومرخصاً لهم فيه، فلما رأى الصحابة: أن الأمة تفترق، وتختلف - إذا لم يجتمعوا على حرف واحد - أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً، وهم معصومون من الضلالة[1].

وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع، ونقل عنها المصحف الإمام - جامع لقراءات القرّاء السبعة وغيرها، ممّا يقرأ به الناس، ونقل متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات[2].

5- عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار:

لمّا فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف، أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الآفاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرّقها في الأمصار، فقيل: إنها أربعة، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية، أما كونها أربعة، فقيل: إنه أبقى مصحفاً بالمدينة، وأرسل مصحفاً إلى الشام، ومصحفاً إلى الكوفة، ومصحفاً إلى البصرة، وأما كونها خمسة، فالأربعة المتقدم ذكرها ومصحفاً لأهل مكة، وأما كونها ستة فالخمسة المتقدمة، والسادس اختلف فيه، فقيل: جعله خاصاً لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين، وأما كونها سبعة، فالستة المتقدم ذكرها، والسابع أرسله إلى اليمن، وأما كونها ثمانية، فالسبعة المتقدم ذكرها والثامن كان لعثمان يقرأ

(1) المصدر نفسه صـ 180.
(2) المصدر نفسه صـ 180.

فيه وهو الذي قتل وهو بين يديه[1].

وبعث رضي الله عنه مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءاته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السُّلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدني[2].

من هذا الاستعراض يتضح أن حفظ القرآن الكريم قد تم بطريقة لم يحظ بها كتاب آخر في تاريخ البشرية كلها؛ وذلك لأن الله تعالى هو الذي تعهد بحفظه قائلاً:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

فوفق الله - سبحانه - نفراً من عباده الصالحين ليقوموا بهذا الدور العظيم في ظل من الرعاية الإلهية التي حفظت لنا القرآن الكريم حفظاً كاملاً، حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة، في نفس لغة الوحي " اللغة العربية " على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن العظيم شاهداً على الخلق أجمعين بأنه كلام رب العالمين[3].

* * *

(1) أضواء البيان في تاريخ القرآن صابر حسن صـ 77.

(2) المصدر نفسه صـ 78، عثمان بن عفان للصلابي صـ 256.

(3) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي صـ 70 - 71.

المبحث السادس

الكتب السماوية

أولا: وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن الكريم في صيغة الأمر تارة وصفة للمؤمنين تارة أخرى، كما يجيء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة.

1- فمن أمثلة الأمر قوله تعالى:{قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦].

2- كما جاء في صيغة مشابهة له في سورة آل عمران قال تعالى: {قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾} [آل عمران: ٨٤].

3- وقد يأتي الأمر في صيغة مجملة في مثل قوله في سورة النساء، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ} [النساء: ١٣٦].

4- أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجيء في مثل هذه الصيغة، قال تعالى:{الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾} [البقرة: ١ - ٤].

5- أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها

ويكفرون ببعض بأنهم كفار فيجيء في مثل قوله تعالى:{وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا } [النساء: ١٣٦].

6ـ وقال تعالى:{بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾} [البقرة: ٩٠ - ٩١].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها سواء كانت أمراً مباشراً أو وصفاً للمؤمنين أو وصفاً للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به.

وذلك أمر بديهي بالنسبة للمؤمن، فما دام يؤمن بالله وصدق ما نزل من عنده من الوحي ومادام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أنزل كتباً سابقة على الأنبياء والرسل، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة ويعتقد يقيناً أنها منزلة من عند الله، ولو شك في هذه الحقيقة أو كذب بها فلن يكون مؤمناً على الإطلاق وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً وهو يكذب خبراً آتياً إليه من الله تعالى، كذلك لو قال إنه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله تعالى حقاً ويشك ويكذب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله تعالى، فهل يكون مؤمناً بالله تعالى ولو زعم ذلك؟

إن من بين دعائم الإيمان التصديق، فكيف يوجد الإيمان إذا كذَّب

الإنسان حرفاً واحداً مما أخبره الله به؟ وما قيمة دعواه أنه مؤمن بالله تعالى أو مؤمن ببعض الكتب التي أنزلها الله تعالى؟ إنها دعوة مردودة على صاحبها لأن الدليل العملي يكذبها، ثم إن الكتب السماوية كلها تحتوي على حقيقة واحدة، وهي الأمر بعبادة الله تعالى وحده، لقد اختلفت الكتب المنزلة في اللغات التي نزلت بها؛ لأن الله يقول:{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ } [إبراهيم: ٤].

وهذه الكتب نزلت على أقوام مختلفين فاختلفت من ثم لغاتهم، كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتويه من شرائع مختلفة للأقوام المختلفة، قال تعالى:{لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ} [المائدة: ٤٨].

ولكن القضية الأصلية في هذه الكتب كلها واحدة لم تتغير،{وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥} [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى:{ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} [النحل: ٣٦].

وقال تعالى:{شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ} [الشورى: ١٣].

كذلك نزلت الكتب كلها لتنذر الناس بيوم الحساب، قال تعالى: {رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾} [غافر: ١٥ - ١٧].

وما دام الأمر كذلك فالإيمان بالكتب كلها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء والقضية عند المؤمن واضحة ولا تحتاج إلى جدال، إنما الجدال قد جاء في الحقيقة من أهل الكتاب، لأنهم رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وحساب هؤلاء على الله[1]، كما أن أسلافهم قد حرَّفوا الكتب السماوية (التوراة والأنجيل).

ثانيا: الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

من تلك الكتب التي أنزلت على الرسل السابقين ما سماه الله تعالى لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمه لنا، فمن الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

1 ـ الصحف:

وكل الذي جاء في القرآن عنها قوله تعالى:

أ - قال تعالى: {أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾} [طه: ١٣٣].

ب- قال تعالى: {أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ} [النجم: ٣٦ - ٤٢].

ج- قال تعالى: {قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ

(1) ركائز الإيمان محمد قطب صـ194.

وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾} [الأعلى: ١٤ - ١٩].

2 ـ التوراة:

ذكر القرآن الكريم التوراة (18) مرة، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، وخلاصة حديث القرآن عن التوراة قد تستطيع إجماله في الآتي:

أ – وصف القرآن التوراة بأنها هدى ونور وفرقان، وضياء وذكر، قال تعالى:{ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى:{وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾} [الأنبياء: ٤٨].

ب – إن التوراة كتاب شامل لكل شيء، قال تعالى:{ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً} [الأنعام: ١٥٤].

وتحدث القرآن الكريم عن ألواح موسى عليه السلام، وقد وردت في ثلاثة مواضع، فقال:{ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾} [الأعراف: ١٤٥].

- وقال تعالى:{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ} [الأعراف: ١٥٠].

- وقال تعالى:{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾} [الأعراف: ١٥٤].

جـ - إن الرسالات التي جاءت بعدها مصدقة لها، فلقد قال الكتاب عن عيسى عليه السلام:{وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ} [المائدة: ٤٦].

وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم :{وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ } [البقرة: ٨٧ - ٨٩].

ح - إن القرآن تحدث عن بعض الذي جاء في التوراة، ولنأخذ هذين المثالين:

المثال الأول: قال تعالى:{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾} [المائدة: ٤٥].

المثال الثاني:{ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ } [الأعراف: ١٥٧][1].

(1) المحكم في العقيدة د. محمد عياش صـ183.

س – ذكر القرآن الذين كلفوا بحمل أمانة " التوراة " منهم من حملها بأمانة، ومنهم من لم يحملها، فقال عن الصالحين منهم{وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾} [الأعراف: ١٥٩].

وقال عن المفسدين منهم:{مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾} [الجمعة: ٥].

لكن هؤلاء أصبحوا هم الكثرة الغالبة، فأخذ القرآن الكريم لا يتحدث عن حملة التوراة " بني إسرائيل " إلا ويعمهم بالخيانة ونقض الميثاق، قال تعالى:{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً} [المائدة: ١٣].

- وقال تعالى:{وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾} [الإسراء: ٤].

ك – أكد القرآن أن التوراة الموجودة الآن بين أيدينا هي ليست التوراة التي أنزلها على موسى - عليه السلام - وإنما هي محرفة من قبل بني إسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق[1].

- قال تعالى:{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٨ - ٧٩].

(1) المحكم في العقيدة صـ 184.

- وقال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥].

- وقال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣][1].

3- الإنجيل:

وذكر القرآن الكريم الإنجيل " 12 " مرة ويكاد يكون حديث القرآن الكريم عن الإنجيل قريباً عن حديثه عن التوراة، إلا في بعض النقاط، والإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله عيسى عليه السلام.

أ- وصف القرآن الإنجيل بأنه هدى ونور وموعظة:

قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾} [المائدة: ٤٦].

ب- ومما ورد في القرآن الكريم:

أن الإنجيل جاء مكملاً أو معدلاً لما جاء في التوراة من أحكام ولم يصف القرآن الإنجيل بما وصف به التوراة من أنه كتاب شامل يفصل كل شيء، بل على العكس، جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة هي نسخ بعض ما ورد في التوراة من أحكام، لحكمة يعلمها الله

(1) المحكم في العقيدة صـ 184.

تعالى، يقول القرآن على لسان عيسى:{وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } [آل عمران: ٥٠].

ولهذا ربط القرآن الكريم بينهما في مهمة عيسى - عليه السلام - فقال:{وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ } [آل عمران: ٤٨ - ٤٩].

ج – هناك فرق واضح في اهتمام القرآن الكريم، فالظاهر اهتمامه برسالة موسى عليه السلام أكثر من الإنجيل ويظهر هذا في عدد المرات التي ذكرت فيها التوراة " 18 " مرة بينما ذكر الإنجيل " 12 " مرة وذكر موسى " 136 " مرة بينما لم يذكر عيسى عليه السلام إلا " 25 " مرة، هناك إشارة ربما تكون أظهر في الدلالة على اهتمام القرآن الكريم بالتوراة أكثر من اهتمامه بالإنجيل، وهي قوله تعالى:{وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ } [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠][1].

س – جاءت في الإنجيل كما في التوراة البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:{ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

(1) المحكم في العقيدة صـ 185.

وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾} [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾} [الصف: ٦][1].

ش – إن القرآن الكريم جاء مصدقاً أيضاً لرسالة عيسى – عليه السلام – كما هو مصدق لجميع الرسالات السابقة قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾} [آل عمران: ٨١].

- وقال تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾} [البقرة: ٩٧].

ك – وتحدث القرآن عن حملة الإنجيل كما تحدث عن حملة التوراة فقسمهم إلى قسمين: فئة وقفت مع الإنجيل الحق وأخرى كاذبة كافرة خائنة، فقال عن الأولى: {فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾}

[آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

وأما الثانية فهم: {وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي صـ 197.

ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾} [المائدة: ١٤].

ل – ويخلص القرآن إلى أن الإنجيل الذي بين أيدينا الآن ليس هو كلام الله، بل هو من تحريف المحرفين، قال تعالى:{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾} [آل عمران: ٧٨ - ٧٩].

والحقيقة فالقرآن الكريم لا يفصل في مقدار التحريف الذي ورد على التوراة والإنجيل، وكأن هدفه فقط أن يقول لنا: إن هذين الكتابين ليسا مصدر ثقة؛ لأن الأهواء دخلتهما، أما التفصيل فلا نحتاجه نحن، وأيضاً فإن مقدار التحريف مختلف زماناً ومكاناً ومذاهب[1]، فلم يهتم القرآن الكريم إلا بالذي فيه الفائدة للناس.

4ـ الزبور:

هو الكتاب الذي أنزله ـ الله سبحانه وتعالى ـ على داود عليه السلام، والزبور في اللغة هو الكتاب المزبور أي المكتوب، وجمعه زبر، وكل كتاب يسمى زبوراً، قال تعالى:{ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾} [القمر: ٥٢] أي: مسجل في كتب الملائكة وكتبهم، ثم غلب إطلاق لفظ الزبور على ما أنزل على داود عليه السلام، قال تعالى:{وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ

(1) المحكم في العقيدة صـ 187.

زَبُورًا } [النساء: ١٦٣].

وأخبر - سبحانه وتعالى - أن مما كتبه في الزبور، هو وراثة الصالحين الأرض، قال سبحانه:{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾} [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى:{وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى:{وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا } [الإسراء: ٥٥].

هذه هي الكتب السابقة التي سماها الله لنا في كتابه إلا أنه توجد كتب أخرى أنزلت ولم تسم لنا، بل ذكرت مجملة، كما في قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد: ٢٥].

وعلينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تسم إجمالاً كما أنه لا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه، وأخبرنا القرآن الكريم أنه من الكتب التي أنزلها تعالى على رسول من رسله[1].

ثالثا: تحريف الكتب السابقة:

أخبرنا الله في كتابه المنزل أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم فلم تعد في صورتها التي أنزلها، فقد جاء عن اليهود قوله تعالى:{مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ } [النساء: ٤٦].

- وقال تعالى:{ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

(1) العقيدة الإسلامية، أحمد جلي صـ 198.

يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ} [المائدة: ١٣].

- وقال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ} [المائدة: ٤١].

وجاء عن النصارى قوله تعالى:{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران: ٧٨].

وإذ تدبرنا هذا الأمر وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من التحريف على الأقل قد وقعت في كتب أهل الكتاب وكلها وردت الإشارة إليه في القرآن[1].

1ـ تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه:

إن الله قد حرم الربا في جميع كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن، والتوراة التي بين أيدي اليهود اليوم رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة ـ ماتزال تحمل نصّاً بتحريم الربا، ونصاً بوجوب الأمانة في التعامل مع الناس ومع ذلك فاليهود ـ كما هو معلوم ـ يتعاملون بالربا على النطاق الدولي، ويسلبون عن طريقه أموال الناس بغير حق، وعن ذلك يقول الله تعالى:{فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ

(1) ركائز الإيمان صـ 195.

نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾} [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

فكيف تحايلوا على النص الموجود في كتابهم، أو بعبارة أخرى حرفوه ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس وسلب أموالهم؟

لقد قالوا: إن الربا غير جائز في التعامل مع اليهود، وكذلك الأمانة واجبة في تعامل اليهود بعضهم مع بعض، أما إن كان الذي نتعامل معه من غير اليهود فلا بأس عليك أن نتعامل معه بالربا، ولا بأس عليك أن تأكل ماله وذلك ما وردت عنه الإشارة في سورة آل عمران، قال تعالى:{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾} [آل عمران: ٧٥].

أي أنهم قالوا: لا حرج علينا في سلب أموال " الأميين " الذين ليسوا يهوداً ويزعمون أن الله تعالى أباح لهم ذلك وهم يعلمون أن هذا كذب على الله تعالى فإنه حرّم عليهم الربا إطلاقاً وحرّم عليهم سلب أموال الناس جميعاً، أميين وغير أميين[1].

2ـ التحريف بالتغيير والإضافة:

فأما اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعة من القصص والأساطير

(1) ركائز الإيمان صـ 197.

ما أنزل الله بها من سلطان، بعضها يصل إلى حد الفحش في حق أنبيائهم، وما من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليق بالجيش العادي فضلاً عن النبي المعصوم، بل إنهم تجرؤوا على مقام الألوهية وقالوا في حق الله - سبحانه وتعالى - كلاماً لا يخرج من فم مؤمن قط ولا يخطر له على بال، وقد ظلوا يرددون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وسجل عليهم القرآن أقوالهم ومعتقداتهم الفاسدة، قال تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾} [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢].

وأما الإنجيل فيحوي من التغيير والإضافة ما لا يقل سخفاً وبشاعة ولكن في اتجاه آخر، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام والزعم بأنه ابن الله، قال تعالى:{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: ٧٨ - ٨٠].

وأسطورة ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة: الاب والابن وروح القدس، كلها إضافة أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله، كتبوها بأيديهم وزعموا أنها من عند الله وقد رد القرآن الكريم عليهم

رداً مفصلاً في أكثر من سورة، وبيّن حقيقة التوحيد، قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾} [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

ولكن المهم أن أناجيلهم الأربعة المعتمدة " إنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل متى وإنجيل يوحنا " [1]، متضاربة بعضها مع بعض في هذا الشأن، مما ينفي أن تكون كلها من مصدر واحد فضلاً عن أن يكون مصدرها هو الله، وفضلاً عن ذلك كله، فإن هناك إنجيلاً خامساً هو " إنجيل برنابا " منعت الكنيسة تداوله، وأحرقت ما وقع في يدها من نسخه، وهددت من يوجد عنده بإصدار قرار حرمان ضده: أي الحرمان - في زعمهم - من رضوان الله ومغفرته - لأنه يقرر أن عيسى رسول بشر، وليس ربّاً ولا إلهاً، وأنه بشر ببعثه محمد صلى الله عليه وسلم من بعده[2].

3- التحريف بالكتمان:

فهو على نوعين: كتمان أحكام الشريعة، وكتمان الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم يسجل عليهم أنهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله، قال تعالى:{وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(1) ركائز الإيمان صـ 198.
(2) المصدر نفسه صـ 198.

ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾} [آل عمران: ١٨٧].

- قال تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾} [البقرة: ١٤٦].

ويسجل عليهم أن الله أخذ عليهم ميثاقاً بأن يؤمنوا بكل رسول يأتي من عند الله مصدقاً لما معهم، كما يسجل عليهم أن خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾} [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾} [الصف: ٦].

وقال تعالى: { ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾} [الأعراف: ١٥٧].

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلها لأهل الكتاب فقد عصوا أمر

ربهم، وكتموا الحق الذي أمروا بإعلانه على الناس:

وأما إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اجتهدوا في محو كل ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام في كتبهم وأخفوه عن الناس، ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيت إشارات في التوراة والإنجيل لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارة لمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول:{ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦} [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى:{حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ} [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى:{وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠} [البقرة: ٨٩ - ٩٠].

رابعا: أهمية الإيمان بالكتب السماوية:

1ـ الإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.

2ـ الإيمان بالكتب السابقة يؤكد وحدة الرسالات الإلهية وأن الإسلام جامع لكل الديانات السماوية، والمسلمون أولى الناس جميعاً بقيادة

(1) ركائز الإيمان صـ 200.

البشرية على نهج الإسلام، فالمؤمن يعتقد أن أي طائفة من أهل الكتاب يملكون أساساً وأصلاً لدينهم وهذا مما يجعل أهل الكتاب قريبين من الإسلام والمسلمين لو أنصفوا، قال تعالى:{شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾} [الشورى: ١٣].

3ـ الإيمان بالكتب الإلهية جزء من الإيمان بالقرآن الكريم وجزء من الإيمان بأن الله سبحانه هو الهادي، وأن هداية الله لم تنقطع عن البشر، فما من أمة إلا وقد أنزل الله بها هدى، قال تعالى:{وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾} [فاطر: ٢٤].

4ـ المسلم يؤمن أن القرآن الكريم قد اشتمل على كل ما سبقه من كتب وهو سليم من أي تحريف، فالقرآن الكريم يصدق بالكتب السابقة، وهو المرجع الوحيد لبيان ما فيها من حق، قال تعالى: { وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ } [المائدة: ٤٨].

5ـ الإيمان بالكتب السابقة ينمي لدى المسلم الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة مصدرها، وأن الأمة الإسلامية ورثت العقائد السماوية ووحدة النبوات منذ فجر البشرية، والمحافظة على تراث العقيدة وتراث النبوة، ورائدة موكب الإيمان على الأرض إلى آخر الزمان.

6ـ الإيمان بالكتب السابقة، ينقي روح المؤمن من التعصب الذميم

ضد الديانات، وضد المؤمنين بالديانات، ماداموا على الطريق الصحيح[1].

والموقف الذي ينبغي أن يتخذه المسلم من تلك الكتب " التوراة والإنجيل "، أن يؤمن بما ورد فيها مما قرره القرآن الكريم، أما ما ورد مخالفاً أصول القرآن العامة فلا يؤمن به، بل يعتقد في بطلانه، أما ماعدا ذلك من القصص والمواعظ التي لم يذكرها القرآن الكريم، ولا تناقض أصوله فلا يصدقها ولا يكذبها، وذلك اتباعاً لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم)**[2].

فأخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

الأول: ما علمنا صحته، وشهد له بالصدق ما بأيدينا من الوحي فذاك صحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه، ودل على كذبه مخالفته لما لدينا من الوحي.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما أخرج البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن**

---

(1) العقيدة الإسلامية د. أحمد جلي صـ 211.

(2) مسند أحمد رقم 17225، الموسوعة الحديثية (28/ 460)، البخاري رقم 4485.

كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1].

خامساً: القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها:

شاء الله سبحانه وتعالى أن ينسخ الكتب السابقة كلها وينزل كتابه الأخير ليبقى في الأرض إلى قيام الساعة، كان كل رسول من السابقين يرسل إلى قومه خاصة، بينما بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ } [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى:{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } [سبأ: ٢٨].

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين بينما أنزل القرآن للناس كافة، قال تعالى:{وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾} [القلم: ٥٢].

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعاً ويهيمن عليها، قال تعالى:{ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ

(1) البخاري رقم 3461.

أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن الكريم، قال تعالى:{ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ} [المائدة: ٦٨].

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية معناها: الإقرار بوحدانية الله، ذلك أن التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريراً جازماً، ولكن أهل الكتاب حرفوهما، فالمطلوب منهم هو إقامتها مرة أخرى، أي الرجوع إلى أصل التوحيد، ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمر باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وما نزل عليه من وحي.. أي الإسلام، قال تعالى:{ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ} [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى:{ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾} [آل عمران: ٨٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)**[1].

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (2/ 160).

وفي خلاصة هذا المبحث يتضح لنا:

- أن الله عز وجل أنزل كتباً ورد ذكرها في القرآن الكريم هي بترتيبها التاريخي كما يأتي: صحف إبراهيم - التوراة - الزبور - الإنجيل - القرآن.

- وأن هذه الكتب جميعاً تحتوي على حقيقة أساسية هي وحدانية الله عز وجل ووجوب إخلاص العبادة له بغير شريك، وطاعته فيما يأمر وينهي عنه.

- أن الكتب السابقة على القرآن الكريم لم يعد لها وجود في صورتها المنزلة؛ لأنها إما ضاعت، ولم يعد لها أثر معروف كصحف إبراهيم، وإما حرفت على أيدي أصحابها كالتوراة والإنجيل.

- أن التحريف الغالب إما بالتغيير والإضافة وإما بالكتمان، ومن أبرز الإضافات أساطير التوراة، وقصة تأليه عيسى، وقصة التثليث، ومن أبرز ما كتموه الإخبار عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- أن مشيئة الله قد اقتضت نسخ الكتب السابقة كلها ما ضاع منها وما حرف وأنزل القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله[1].

* * *

---

(1) ركائز الإيمان صـ 203.

الخاتمـــة

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية في هذا الكتاب وقد سميته " الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية " فما كان فيه من خطأ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سببا في زيادة إيمانه، وهدايته، أو تعليمه، أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾} [النساء: ٦٩].

وبقول الشاعر:

يا منـزل الآيات والفُرقان	:::	بيني وبينك حرمة القرآن
اشرح به صدري لمعرفة الهدى	:::	واعصم به قلبي من الشيطان
يسِّر به أمري وأقض مآربي	:::	وأجر به جسدي من النِّيَران
واحطط به وزري وأخلص نَيَّتي	:::	واشدد به أزري وأصلح شأني
واكشف به ضُرِّي وحقِّق توبتي	:::	واربح به بيعي بلا خسراني
طهر به قلبي وصفِّ سريرتي	:::	أجمل به ذكري وأعلِ مكاني
واقطع به طمعي وشرِّف همَّتي	:::	كثر به ورعي وأحي جناني
أسهر به ليلي وأظمِ جوارحي	:::	أسبل بفيض دموعها أجفاني
وأُمزجه يا ربِّ بلحمي مع دمي	:::	واغسل به قلبي من الأضغاني

أنت الـــذي صـــوَّرتني وخلقـــتني ::: وهـــــديتني لشـــــرائع الإيمـــــان
أنت الـــذي علَّمـــتني ورحمـــتني ::: وجعلت صدري واعـــى القُـــرآن
أنت الـــذي أطعمـــتني وســـقيتني ::: من غير كســـب يـــد ولا دكـــان
وجـــبرتني وســـترتني ونصـــرتني ::: وغمـــرتني بالفضـــل والإحســـان
أنت الـــذي آويـــتني وحبـــوتني ::: وهديتني مـــن حـــيرة الخـــذلان
وزرعت لي بين القلـــوب مـــودة ::: والعطف منـــك برحمـــة وحنـــان
ونشـــرت لي في العـــالمين محاســـناً ::: وسترت عن أبصـــارهم عصـــياني
وجعلت ذكري في البريـــة شـــائعاً ::: حتى جعلـــت جمـــيعهم إخـــواني
والله لو علمـــوا قبـــيح ســـريرتي ::: لأبى السَّلام علـــيَّ مـــن يلقـــاني
ولأعرضوا عنِّي وملُّـــوا صُـــحبتي ::: ولُبـــؤت بعـــد كرامـــة بهـــوان
لكن ســـترت معـــايبي ومثـــالبي ::: وحلمت عن سقطي وعن طغيـــاني
فلـــك المحامـــد والمـــدائح كلـــها ::: بخـــواطري وجـــوارحي ولســـاني

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: ١٠].

" سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ".

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

* * *

الفهـــرس

فهرس الكتاب

* * *

كتب صدرت للمؤلف

1- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2- سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4- سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته و عصره.
5- سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته و عصره.
6- سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته و عصره.
7- الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8- فقه النصر و التمكين في القرآن الكريم.
9- تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10- تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين في الشمال الإفريقي.
11- عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12- الوسطية في القرآن الكريم.
13- الدولة الأموية، عوامل الازدهار و تداعيات الانهيار.
14- معاوية بن أبي سفيان، شخصيته و عصره.
15- عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16- خلافة عبد الله بن الزبير.

17- عصر الدولة الزنكية.

18- عماد الدين زنكي.

19- نور الدين زنكي.

20- دولة السلاجقة.

21- الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22- الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23- الشيخ عمر المختار.

24- عبد الملك بن مروان بنوه.

25- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26- حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27- وسطية القرآن في العقائد.

28- فتنة مقتل عثمان.

29- السلطان عبد الحميد الثاني.

30- دولة المرابطين.

31- دولة الموحدين.

32- عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33- الدولة الفاطمية.

34- حركة الفتح الإسلامي في الشمال الافريقي.

35- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس.

36- إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37- الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38- الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39- المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الإنكسار.

40- سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41- الإيمان بالله جل جلاله.

42- الإيمان باليوم الآخر.

43- الشورى في الإسلام.

44- السلطان محمد الفاتح.

45- الإيمان بالقدر.

46- الإيمان بالملائكة.

47- الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية.

* * *